من بلاغة التمني
في النظم القرآني

دكتور

عبد الحميد خميس الديب

مدرس بقسم البلاغة والنقد بالكلية

١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م

المقدمة

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله رب العالمين ، الذى فضلنا بالقرآن على الناس أجمعين ، وآتانا به من الفضل ما لم يؤت أحداً من العالمين . والصلاة والسلام على من كان خلقه القرآن ، ووصيته القرآن ، وميراثه القرآن ، القائل : خيركم من تعلم القرآن وعلمه [1] .

وبعد ، فإن للنفوس البشرية أحوالاً تتباين تبعاً لاختلاف الطبائع بينهما : فحين تكون النفس آمله طموحة تتعلق بالشئ البعيد فتراه قريباً ، وحين يغلب على نفس أخرى ذل اليأس ترى القريب بعيداً .

وفى التمنى متسع لكل من ضاق ذرعا بواقعه المحدود أو المرير ، وتجاوزت آماله وتطلعاته ما عليه حاله فى الحقيقة والواقع ، فتراه يتعلق قلبه بمعان يستحيل وقوعها أو يبعد ، لكنه يرضى من هذا بالتنفيس عن نفسه المكروبة وإن كان على يقين من أن ما يتمناه لا سبيل إلى تحقيقه .

ولطالما ألح على هذا السؤال : كيف يتعلق القلب بشيء تيقن من عدم إمكانه ؟ وقد بدا لى -فيما بعد- أن هذا التعلق سر من الأسرار التى أودعها الله النفس البشرية وطبعها عليها ، كما أنه لا يخلو من مزية بلاغية اقتضاها المقام واستدعاها الحال .

وقد وقعت فى كلام أهل العلم على ما يكشف عن القيمة النفسية لأسلوب التمنى حيث يرى العلامة ابن يعقوب المغربى أن تمنى ما لا سبيل إلى تحقيقه قد يكون للاستعطاف أو للاعتذار وما شابه ذلك ، وقد يكون لمجرد موافقة الخاطر والترويح عن النفس [2] .

---

(1) رواه البخارى فى فضائل القرآن .

(2) ينظر مواهب الفتاح / شروح التلخيص : ٢/٤٢٠ .

وفى هذا السياق يرى أستاذنا الدكتور / محمد أبو موسى أن رغـــائب النفوس ومشتهياتها ليست مقيدة بحدود الإمكان ، وأن فرقا بين الآمال التى يراد تحقيقها واتخاذ الوسائل إليها وهى بالطبع خاضعة للتفكير والإمكـــان ، وبـــين أشواق الروح وتطلعاتها التى لا تحدها حدود ، ويقول : إن التعبير عـــن هـــذه المتمنيات حين لا يكون القصد منه إحداث التأثير فى موقف معين يكون الغـرض هو نفس التعبير والترجمة عن هذه الخواطر الحبيسة والغناء بهذه الأحلام البعيدة ، فإن ذلك مما يروح عن النفس ويطرح عنها أثقالا وأوزارا . ويذكر أن التمـــنى باب من أبواب الشعر الدافئة ، وأن الشعراء كثيرا ما أفصحوا عن أنهم يتعلقون بما لا يكون على حد قول ابن الدمينة :

أكثرت من ليتنى لو كان ينفعنى ومن منى النفس لو تعطى أمانيها

وتجد هذا الأسلوب فى القرآن الكريم عظيم السلطان ، شديد الســيطرة فى مثل هذه المواقف [1] .

والتمنى عند البلاغيين : (طلب المحبوب الذى لا طمع فيه ، بـــأن يكون غير ممكن ، أو يكون بعيد الحصول : فالأول كقول الشاعر :

ليت الكواكب تدنو لى فأنظمها عقـــود مدح فما أرضى لكم كلمى

والثانى كقول الآخر :

فيا ليت ما بينى وبيـــن أحبتـــى من البعد ما بينـــى وبيـــن المصائب

واللفظ الموضوع له ليت . ولا يشترط فى التمنى الإمكان . تقـــول : ليت زيدا يجئ . وليت الشباب يعود . قال الشاعر :

يا ليت أيام الصبا رواجعا [2] .

---

(1) ينظر : دلالات التراكيب : ١٩٩ ، ٢٠٠ .

(2) بغية الإيضاح : ٢/ ٣٢ ، ٣٣ .

"ليت" إذن هى الأداة المفردة الموضوعة للتعبير عن تلـــك الرغـــائب النفسية ممكنة أو غير ممكنة ، صادرة عن نفوس آملة أم يائسة ، وهى أمٌ فى هـذا الباب ، فقد يتمنى بغيرها من الأدوات ، لكنها لا تنفك عن إفادته ، ولم تخـــرج عن معناه .

وفى هذا يقول أستاذنا الدكتور / محمد أبو موسى : (وإذا كنـــا نجـــد أدوات الاستفهام والنهى والنداء وغيرها تخرج عن معانيها الأصلية ، وتستعمل فى معان أخرى فإننا لا نجد الأمر كذلك فى التمنى ، وإنما يتكلم البلاغيون فيـــه عن إفادة التمنى بغير أداته الأساسية التى هى "ليت" ولم يتكلموا عن إفادة ليـــت معانى غير التمنى ، ولعل هذا لعراقتها فى التمنى ، وأنها لم تخلص منه ، ولم تجـر فى غير هذا المعنى القلبى الحميم [1] .

وقد يتمنى بغير ليت - وهو اللفظ الموضوع للتمنى - فيستعمل فيـــــه مجازا - هل ، لو ، ولعل ، وهذا الخروج على الأصل لا يخلو من مزية بلاغيـــة نعرض لها فى موضعها من هذا البحث إن شاء الله تعالى .

وهذه نظرات فى التمنى القرآنى ، مهدت لها بتحرير مصطلحـــه لـــدى أرباب البيان ، وقد استقرأت شواهده فى الكتاب العزيز غير مقطوعـــــة عـــن سياقها العام .

وفيها أبنت عن سر تعلق النفوس بما لا يرجـــى حصولـــه أو يســـتبعد مستضيئا فى ذلك بما هدى إليه أهل العلم وبما دلُّوا عليه فى هذا المجال .

وقد فَصَلت فيها بين ما ورد من أدواته على الأصل فيما جرى عليـــــه اللسان العربى فى التعبير عن رغائب النفوس وما ورد منها على خلاف الأصـــل

---

(1) دلالات التراكيب : ٢٠٠ .

محاولا كشف المزية البلاغية فيما عدل إليه عما عدل عنه ، وكيف اقتضى المقام كلا فى موضعه بحيث لا يصلح أحدهما موضع الآخر ، إذا إن القرآن كلام من كل شئ عنده بمقدار .

وختمت هذه الدراسة البلاغية ببيان أهم النقاط التى تمخضت عنها تلك النظرات استنباطا أو تقريرا .

أسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن همه الصدق ، وبغيته الحق ، وغرضه الصواب ، وأن نكون من خيار وارثى القرآن الكريم الذين هم بهدايته مستمسكون ، والذين هم على حراسته قائمون ، والذين هم تحت رايته يوم القيامة يبعثون فى جند المبعوث رحمة للعالمين : محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ..

(التمنـــى بليـــت)

سبقت الإشارة إلى أن "ليت" هو اللفظ الذى جرى اللسان العربى على اعتماده أصلا فى التمنى ، وقرر علماء اللغة أنه اللفظ الموضوع لإفادته .

وغاية النفس من التعلق بهذا الذى لا يتوقع حصوله التنفيس عن رغبة حبيسة كامنة فى القلب ، تنطلق فى صورة التمنى الذى هو ترجمة عن رغائب النفس وتصوير لأشواق الروح ، فطموحات الإنسان لا تنتهى ،وليس كل ما يتمنى المرء يدركه ، وما يفوته من آمال فى رحلة حياته أكثر مما يحققه ، ولذا يلجأ إلى التمنى فى الترجمة عن تلك الأحلام الحبيسة فيصوغها كلمات حارقة تستوعب آماله الوردية المنبعثة من عالم النفس المزدحم بالرؤى [1] .

وفى هذا غناء للنفس وترويح عنها وحط من أثقالها وأوزارها .

ولاشك أن تطلعات القلوب وأشواق الروح مجال ربح فسيح ، لا يخضع لمقاييس الواقع ، ولا يقيد بحدود الإمكان ، وتبقى النفس البشرية - فى باب التمنى - ظمئة إلى ما تتطلع إليه وتشتاق ، ثم إن ظمأها ظمأٌ لا يروى أو يستبعد ريه [2] ، ولا سبيل للترجمة عن هذه الخواطر إلا بالتمنى .

فماذا عن التمنى بليت فى القرآن الكريم ، وما الغالب فى تصنيف رغائب النفوس المتمنية : أإلى المستحيل تنتسب أم إلى بعيد المنال ؟ وماذا عن زمن وقوعه : أهو مقصور على الآخرة أم أن بعض صوره تصدر عن المتمنين فى العاجلة ؟ وما العاطفة المصاحبة لكل صورة من صوره :

أهى بائسة حزينة أم أنها مغتبطة مسرورة ؟ وغير ذلك مما اقتضاه المقام من ورود التركيب القرآنى بعبارة التمنى الواردة فى السياق دون سواها ؟

---

(1) ينظر : الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية فى القرآن الكريم : أ.د. صباح دراز : ٢٨٤ .

(2) ينظر : دلالات التركيب : ١٩٥ .

فإلى تحليل شواهده إن شاء الله تعالى :

(١) ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ (النساء : ٧٣)

هذا أول شاهد تمنٍ قرآني – حسب ترتيب سور الكتاب العزيز – ورد على الأصل في الاستعمال : حيث عبر عنه "بليت" التي يرى البلاغيون أنها اللفظ الموضوع للتعبير عن هذا الذي تتعلق به النفوس مما لا يرجى حصوله . وهو يطلعنا على صورة من صور تمني النفس البشرية إدراك ما فاتها وتحسرها عليه بعد أن لم يعد تحقيقه في مقدورها وصار التعلق بحصوله ضرباً من الخيال .

والآية الكريمة وردت في إطار تحذيري للمؤمنين من خطرين : أعداء في الدين ، عداوتهم ظاهرة ، يجب الحذر منهم والتأهب لرد كيدهم . ومثبطين معوقين من داخلهم ، يتخلفون عن القتال ويثبطون عنه ، فإن أصاب المؤمنين قرح شمتوا فيما نزل بهم . وإن نالهم فضل من الله تحسروا على فوات منفعتهم ، وتمنوا لو كانوا معهم كي لا يحرموا من هذا المغنم العظيم .

والتمني في الآية الكريمة – " يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما " – منبئ عن عظيم تحسر وشديد ندامة على ضياع منفعتهم القريبة التي كان بالإمكان تحصيلها وزيادة لو كانوا ضمن المجاهدين في الميدان .

وقد اشتملت عبارة التمني على عناصر أسلوبية كشفت عما يعتصر قلوب المبطئين عن القتال من تحسر وندامة بلغت الغاية منها : استهلال التمني بيا ، وهي في مثل هذا الأسلوب لم تعد بمعنى النداء ، وخلصت للتنبيه : "يا عند قوم للنداء ، والمنادى محذوف ، تقديره : يا قوم ليتني ... وذهب أبو علي – الفارسي – إلى أن "يا" للتنبيه ، وليس في الكلام منادى محذوف وهو الصحيح"[١] .

(١) البحر المحيط : ٢٩٢/٣ .

والذى استظهره صاحب البحر المحيط ـ وعليه جمهور أهل العلم ـ هـو ما تطمئن إليه النفس ، إذ إن أركان النداء غير مكتملة فى مثل هـذا الشـاهد القرآنى ، وعدها محذوفة فيه إجحاف بالأساليب لحذف المنادى والمنادى لأجله ، الأمر الذى يرجح القول بكونها للتنبيه من غير قصد إلى تعيين المنبَه ، والتنبيـه هنا لم يعد بالمعنى الذى كان مستفادا من "يا" حال إرادة الخطاب ، بل هو أقرب إلى كونه صيحة مستعرة تصدر عن نفس مكروبة بسبب ما فاتها مـن منفعـة عاجلة . كما أن الياء بإيقاعها الممدود عون للمبطئين المتندمين على أن يمـدوا فى أصواتهم المتحسرة ونبـراتـهم الأسيفة ، والإيقاع الممدود يزيد الموقف طـولا ويزيد أثره عمقا حتى ليكاد السامع لهذه الصيحة الملهوفة التى استهل بها التمـنى يشارك فى التندم والأسى والأسف [1] .

ولما كان تحصيل ما فات المبطئين ـ من كونهم مع المجـاهدين الغـانمين ليفوزوا معهم ـ أمراً مستحيلا استعملت "ليت" التى تفيد تمنى مـا لا يرجـى حصوله لاستحالته .

فالمبطئون على قناعة تامة من أن عجلة الزمن لن ترجع إلى الوراء ، ولن يتاح لهم أن يعادوا إلى ذات الموقف الذى استجاب فيه المؤمنون لداعى الجهاد ، فأصابهم فضل من الله دون من سواهم ولما كان متمناهم أمراً مستحيلاً استعملوا فى التعبير عن هذا المتمنى الذى لن يرجى حصوله "ليت" التى هى الأصل فى هذا الباب . فكأن تمنى المبطئين هنا تحسر وتندم على ما فاتهم من منفعة الدنيـا ، وفى هذا غناء لهم وتنفيس عما يطبق على صدورهم من كرب شديد .

---

(1) ينظر : فى ظلال القرآن : ٥/٢٥٦٠ .

هذا ، ولا يقتصر ما تمناه المنافقون على معية المؤمنين الغـــانمين ، بـــل تعداها إلى حسدهم على هذا الفضل الذى أوتوه ، وأستند فى إفادة عبارة التمنى حسدَ المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله إلى أمور ثلاثة :

أولها : ما ذكره صاحب الكشاف من أن هذا الاعتراض بـــين القـــول والمقول - " كأن لم تكن بينكم وبينه مودة " - تهكم بحال المنافقين لأنـــهم كانوا أعدى عدو للمؤمنين وأشدهم حسدا لهم ، فكيف يوصفون بـــالمودة إلا علـــى وجه العكس تهكما بحالهم ؟ (١) .

والثانى : ما أورده صاحب البحر المحيط صراحة من أن عبارة التمـــنى معناها الحسد : (وقال قتادة وابن جريج : قول المنافق " يا ليتنى كنت معـــهم " على معنى الحسد منه للمؤمنين فى رغبته) (٢) .

والثالث : الإتيان بالمصدر فيما تمناه المنافقون ووصفه بالعظم - فـــأفوز فوزا عظيما - وهذا يكشف عن أنهم يعرفون جيدا حجم الخير الـــذى أصـــاب المؤمنين ، وما داموا لن ينالوا منه شيئا ، ومودتهم للمؤمنين فى الظاهر فقـــط ، وفى الباطن يبغون لهم الغوائل فإن أقرب ما يخطر ببالهم - وهو يعبرون عن هـــذا التمنى المفعم بالتحسر والتندم على ما فاتهم من هذا الذى وصفوه بأنـــه فـــوز عظيم - حسد المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله .

ويرى العلامة ابن عاشور فى هذا التمنى غرابة ، ووجه الغرابة فيـــه أن المبطنين صاروا متلهفين على ما فاتهم بأنفسهم وأنهم يودون أن تجرى المقـــادير على وفق مرادهم ، فإذا قعدوا عن الخروج لا يصيب المسلمين شئ من فضـــل الله (٣) .

* * *

---

(١) ينظر الكشاف : ١/٢٨٠ .

(٢) البحر المحيط : ٣/٢٩٣ .

(٣) ينظر التحرير والتنوير : ٥/١٢٠ .

(٢) (وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (الأنعام : ٢٧)

هذه صورة من صور تمنى المستحيل : إذ تمنى الذين كفروا الرد إلى الدنيا بعد معاينتهم النار ومعرفتهم مقدار عذابها ، فانتهوا إلى حالة من الخزى والحسرة يتعجب من فظاعتها كل من يتأتى منه الرؤية وقد كانوا فى الدنيا أصحاب أمر ونهى ونأى وادعاء عريض .

ويلحظ فيما تمنوه من الرد إلى الدنيا أنه أعقب مشاهدتهم هول جهنم ، وقد علموا أنه جزاء تكذيبهم بإلهام أوقعه الله فى قلوبهم ، أو إخبار ملائكة العذاب فعجلوا فتمنوا أن يرجعوا [١] .

وفى بيان المتمنى يقول العلامة أبو السعود : ("فقالوا يا ليتنا نرد" : أى إلى الدنيا تمنيا للرجوع والخلاص ، ولات حيت مناص . "ولا نكذب بآيات ربنا" أى بآياته الناطقة بأحوال النار وأهوالها ، الآمرة باتقائها ، إذ هى التى تخطر حينئذ ببالهم ، ويتحسرون على ما فرطوا فى حقها ، أو بجميع آياته المنتظمة لتلك الآيات انتظاما أوليا . " ونكون من المؤمنين بها العاملين بمقتضاها حتى لا نرى هذا الموقف الهائل .. والمعنى : إن رددنا لم نكذب ونكن من المؤمنين [٢] .

وانظر إلى أحوال الصياغة - فيما تمناه الذين كفروا حين وقفوا على النار - من إضافة الاسم الأعظم إلى ضمير الذين كفروا ، وما يفيده من الإقرار بإحسان رب العزة إليهم . وانظر كذلك إلى قولهم فى جواب التمنى : "ونكون من المؤمنين" دون أن يقال : ونؤمن ، وما فيه من الدلالة على تعهدهم بأنهم لن يكتفوا بأن يكونوا مجرد مؤمنين ، بل راسخين فى الإيمان [٣] .

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير : ١٨٤/٧ .

(٢) إرشاد العقل السليم : ١٢٣/٣ .

(٣) ينظر : نظم الدرر : ٨٦/٧ .

إن إضافة الاسم الأعظم إلى ضمير الذين كفروا يعنى قبل الإقرار بإحسان رب العزة إليهم إيمانا فوريا بوجوده سبحانه - واعترافاً بربوبيته ، وقد كان هذا كله موضع إنكار وجحود فى الدنيا .

ولا يخفى ما تشى به عبارة "ونكون من المؤمنين" من غاية الذلة والمسكنة حيث يتمنون أن يكونوا تابعين للمؤمنين فى عقيدتهم وما يرتبط بها من طيب الكلم وصالح العمل ، وقد كان المؤمنون فى الدنيا موضع احتقارهم ومجال تهكمهم وسخريتهم .

"فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون . هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون " [1] .

وكأن الذين كفروا بهذه الصياغة التى آثروها فى التعبير عما تمنوه آملين فى تحققه يحاولون التبرؤ مما كانوا عليه من فساد العقيدة فى الدنيا ويلزمون أنفسهم إيمانا بالله تعالى - الذى أنكروا وجوده من قبل - ويؤكدون تبعيتهم للمؤمنين الذين كانوا يستضعفون فى الأرض حتى يجابوا إلى ما تمنوه من الرجوع والخلاص ، وحالهم من الخزى والحسرة لا تخفى على ذى عينين وهيهات هيهات أن يجابوا لشئ من هذا الذى تمنوه .

* * *

(٣) (وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً) (الكهف : ٤٢)

تصدر هنا صرخة متلهفة من صاحب الجنتين فى مشهد هلاك وبوار بعد طول نماء وازدهار ، وهيئة ندم وتحسر بعد كثير بطر واستكبار : تندم على تفريط اقترف فى جنب الله عز وجل - وعدم الإذعان لما وجهه إليه صاحبه

---

(1) المطففين : ٣٤-٣٦ .

المؤمن من ضرورة الإيمان بالله الذى خلقه فسواه ، والاعتراف بفضله فى كل ما أعطاه .

وتحسر على ما أصاب إحدى جنتيه من إبادة أصولها وإهلاك ثمارهـــا ، وبهذا لم يعد يملك ما كان يتعالى بسببه ويتفاخر على صاحبه المؤمن وعلى غـــيره من الناس من كثرة المال وعزة النفر ووفرة الثمر ودوام هذا النعيم الذى يتقلب فيه . مقولة التمنى إذا : " يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا" يقول بشأنها العلامة ابـــن عاشور : (وحرف النداء مستعمل فى التلهف . وليتنى تمن مراد به التندم) [1] .

ويرى الإمام البقاعى فى هذا التمنى الذى أريد به التندم تحسرا من قبـــل صاحب الجنتين على ما فاته من الدنيا من المنفعة العاجلة لا تحزنا على الإيمـــــان لحصول الفوز فى العقبى : يقول فى ذلك (فندم حيث لم ينفعه الندم على ما فرط فى الماضى لأجل ما فاته من الدنيا لا حرصا على الإيمان لحصول الفوز فى العقبى لقصور عقله ، ووقوفه مع المحسوسات المشاهدات) [2] .

وأحسب أن الإمام البقاعى حين قال بهذا الإيمان الظاهرى - والمفـوض أن الإيمان عقدى باطنى - بنى وجهته على أساس ترتيب كلام صاحب الجنتين فى اللفظ الذى أتى على وفق ترتيب المعانى فى نفسه وأولوياتها عنـــده ، فـــالرجل المحاط بثمره حين أصابه ما أصابه صوره القرآن الكريم بأنه يقلب كفيه تندمـــا وتحسرا على ما أنفق فى عمارة جنته وجعلها بهذه الصورة التى كان بها يتفـــاخر ويتعالى على الآخرين ، فالذى أحزنه ما فاته من منفعة الدنيا العاجلة ، ولما كـــان سبب فوات هذه المنفعة عدم إيمانه تمنى أن لم يكن قد أشرك بربه أحدا ، ولـــــو كان تندمه وتحسره على عدم الإيمان الخالص لقلب الكفين على تلك العقيـــدة

---

(1) التحرير والتنوير : ٣٢٧/١٥ .

(2) نظم الدرر : ٦٥/١٢ .

الفاسدة ، ولهانت عليه مصيبته فى دنياه أمام مصيبته فى دينه ، إذ إنهـــا أنكـــى وأعظم ، والعياذ بالله من أن تكون المصيبة فى الدين .

* * *

(٤) (فَأَجَاءَهَا المَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِى مِتُ قَبْلَ هَـــذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِياً) (مريم : ٢٣) .

فى هذه الآية الكريمة صورة من صور تمنى المستحيل : حيث تبرز نـــبرة عالية ممزوجة بالتحسر والتندم من مريم ـ عليها السلام ـ بسبب ما تعانيـــه فى هذا الموقف العصيب ، وفوق هذا كله ـ وهو ليس هينا ـ تعانى من ألم نفســـى وقعه أشد بسبب ما ستواجه به من إنكار أهلها أمر ولادتها دون أن يمســـها بشر ، وهى الشريفة العفيفة ، بريئة الساحة من كل ما سترمى به رجماً بالغيب ، وهنا تتمنى أن أدركها الموت من قبل وكانت شيئا حقيرا من شأنه أن ينسى .

الذى تـــمنته مريم ـ عليها السلام ـ هو أن تكون قد ماتت قبـــل أن تطعن فى عفتها من قومها ، وأن يكون ذكرها قد انقطع بين أهلها من قبل ذلك حتى لا تتعرض لهذه المحنة التى هى فيها . فالياء التى استهل بها التمنى ـ بما لها من خصوصية فى رفع الصوت ـ عون لها على إخراج صيحة عالية تصدر عن نفـــس مكروبة بسبب ما تتوقعه من قومها .

والمشار إليه فى "قبل هذا (الوقت الذى لقيت فيه ما لقيت ، أو قبل هذا الأمر) [1] .

نعم ، حق لمريم ـ عليها السلام ـ أن تتمنى الموت عند هـــذا الأمـــر : حيث أحست بألم الولادة ، فهان عليها ألمها ، وأحزنها ما تتوقعه من إنكار قومها أن يروها تحمل مولودا دون أن يمسسها بشر ، وهى التى لم تك بغياً ، بل قائمـــة

---

(١) روح المعانى : ١٨/٤٠٠ .

تصلى فى المحراب ، يأتيها رزقها رغداً من عند الله ، وما كان أبوها امرء سوءٍ ، وما كانت أمها بغيا .

وهى بوضعها هذا من الشهرة وذيوع الصيت ، وحسن السيرة ، وطهارة الذيل ، ونبل الأصل ، وطيب المنبت فى موقف أصعب ، إذ لو كانت إنسانة مغمورة ما شُغِل الناس بها ، لكنها وقد ارتفع شأنها دينا ودنيا تُحصَى عليها أنفاسها ، وتكون الصغيرة منها كالكبيرة من غيرها ، وينطبق عليها مفهوم القول المأثور : " حسنات الأبرار سيئات المقربين " . وإنه لأمر مؤلم أن يخوض الناس فى عِرض صاحبة هذه الشفافية فى السلوك ، وتلك الدرجة العالية من الطهر والقنوت حين يرونها تحمل مولوداً يجهلون أبوته وينكرونها مع أن حقيقة الأمر أن هذا قضاء الله لا راد له ، وأنها برئية الساحة من كل ما سترمى به رجماً بالغيب .

وقول مريم - عليها السلام - ضمن ما تمنته : "وكنت نسيا منسيا" مبالغة فى نسيان ذكرها . يقول العلامة ابن عاشور :

(والنِسْى - بكسر النون وسكون السين - فى قراءة الجمهور : الشئ الحقير الذى شأنه أن ينسى ... ووصف النسى بمنسى مبالغة فى نسيان ذكرها ، أى ليتنى كنت شيئا غير متذكر وقد نسيه أهله وتركوه ، فلا يلتفتون إلى ما يحل به ، فهى تمنت الموت وانقطاع ذكرها بين أهلها من قبل ذلك .

وقرأة حمزة ، وحفص ، وخلف "نَسْيا" - بفتح النون - وهو لغة فى النسى ، كالوِتر والوَتر والجِسْر والجَسْر" [1] .

([1]) التحرير والتنوير : ٨٦/١٦ .

وللعلامة الراغب الأصفهانى لفتة لطيفة فى الوصف بقولـــه "منســـيا" إذ يرى أن النسى أصله ما ينسى ، وصار فى التعارف اسما لما يقل الاعتداد بـــه . وقوله ـ تعالى ـ : " نسيا منسيا " أى جاريا مجرى النسى القليل الاعتداد بـــه وإن لم ينس ، ولهذا أعقبه بقوله : " منسيا " لأن النسى قد يقال لما يقل الاعتداد به وإن لم ينسى [1] .

وعليه لو اكتفت مريم ـ عليها السلام ـ بقولها : "وكنت نسيا" لكـــان معنى هذا أنها تتمنى أن تكون فترة وجودها على قيد الحياة قبل هذا الأمر الـذى تعاينه كالشئ التافه الذى لا يعتد به لكنه موجود ، فإذا أضيف إلى تفاهته تلـك كونه منسيا كان فى هذا التعبير من المبالغة فى تمنيها انقطاع ذكرها بين أهلها مـا لا يخفى ، وهو لا يتأتى لو لم يوصف النسى بقوله "منسيا" . وهذا الذى تمنتـــه مريم ، وإن كان لا سبيل إلى تحقيقه ، إلا أن فيه تنفيسا عن نفس مكروبة بسبب ما تتوقعه من إنكار قومها أمر ولادتها التى جرت على غير ما يألفون .

ولسائل أن يسأل : كيف ساغ لمريم ـ عليها السلام ـ أن تتمنى ما تمنته بعد أن عرفها جبريل ـ عليه السلام ـ أنه رسول ربـــها أتاها ليهب لها غلامـــا زكيا ؟

وجوابه يؤخذ مما ذكره صاحب "روح المعانى" : (وإنما قالته ـ عليـــها السلام ـ مع أنها كانت تعلم ما جرى بينها وبين جبريل ـ عليه السلام ـ مـــن الوعد الكريم استحياء من الناس وخوفا من لائمتهم ـ أو حذرا من وقوع الناس فى المعصية بما يتكلمون فيها ..... وتمنى الموت لنحو ذلك مما لا كراهة فيه . نعم يكره تمنيه لضرر نزل به من مرض أو فاقة أو محنة من عدو أو نحو ذلـــك مـــن

---

(1) ينظر : المفردات فى غريب القرآن : مادة (نسى) : ٧٤٩ .

مشاق الدنيا ، ففى صحيح مسلم وغيره قال ـ صلى الله عليه وسلم : "لا يتمنين أحدكم الموت لضرر نزل ، فإن كان لابد متمنيا فليقل اللهم أحينى ما كانت الحياة خيرا لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرا لى ، ومن ظن أن تمنيها ـ عليها السلام ـ ذلك كان لشدة الوجع فقد أساء الظن والعياذ بالله تعالى) [1] .

وهكذا سلم لمريم ـ عليها السلام ـ تمنيها الموت من جهة الدين ، كما استقامت لها عبارة المبالغة فى تمنى انقطاع الذكر بين قومها حيث لم تكتف بقولها "وكنت نسيا" وإنما أعقبته بقولها : "منسيا" فكانت العبارة غاية فى البيان .

* * *

(٥) (وَيَومَ يَعَضُ الظَالِمُ عَلَى يَدْيهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِى اتَخَذْتُ مَعَ الرَسُولِ سَبِيلاً . يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِى لَمْ أَتخِذْ فَلاَناً خَلِيلاً) (الفرقان : ٢٧ ، ٢٨)

هذا مشهد من مشاهد يوم عسير على الكافرين غير يسير ، يعض فيه الظالم على يديه كليتهما ، فيكاد يقطعهما لشدة حزنه دون أن يشعر ، متمنيا ـ والأسى قد أطبق عليه ـ أن يكون قد اتبع رسوله فسلك به طريقا إلى الجنة وزحزحة عن النار ، ومتمنيا كذلك ألا يكون قد ملك زمام نفسه لمن أضله وقادة إلى ما فيه هلكته .

ويلحظ فى أحوال نظم التمنى الأول ـ " يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ـ كونه مستهلا بيا ، وهى بإيقاعها الممدود عون للظالم على أن يمد فى صوته المتحسر ونبراته الأسيفة ، والإيقاع الممدود يزيد الموقف طولا ويزيد أثره عمقا حتى ليكاد القارئ للآيات والسامع لها يشاركان فى الندم والأسى والأسف [2] .

---

(١) روح المعانى : ١٦/٤٠٠ .

(٢) ينظر : فى ظلال القرآن : ٥/٢٥٦٠ .

(وليتنى تمنٍ مراد به التندم) [1] إنه تندم على مخالفة الرسول ، وتمنى عدم وقوعها من الأساس .

"وأل فى "الرسول" إما للجنس فيعم كل رسول ، وإما للعهد فالمراد به رسول هذه الأمة محمد - صلى الله عليه وسلم - والأول إذا كانت أل فى الظالم للجنس ، والثانى إذا كانت للعهد " [2] .

وأحسب أن إيراد الرسول بعنوان الرسالة - على لسان الظالم - دون تعريفه بالعلمية اعتراف بالرسالة التى قدح فيها ، ورجوع إلى الحق الذى أنكره فى الدنيا .

" وتنكير "سبيلا" إما للشيوع أو للوحدة ، وعدم تعريفه لادعاء تعينه : أى يا ليتنى اتخذت طريقا إلى النجاة أى طريق كان ، أو طريقا واحدا - وهو طريق الحق ولم تتشعب بى طرق الضلال " [3] .

وفى التمنى الثانى - " يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا " - يبلغ الأسى بالظالم ذروته : إذ نراه من فرط ندمه على مجانبة الرسول وتحسره على المصير الذى آل إليه كأنه يتعجل هلكته بطلب حضورها متمنيا مستحيلاً وهو عدم اتخاذه فى دنياه من أضله عن الذكر خليلا - إنه يتمنى أن يتاح له التبرؤ من هذا الخليل المضلل . لا مجرد معصيته فى الإضلال عن الذكر بعد ما تبين ، وفيه اشمئزاز من خلته من أساسها .

---

(1) التحرير والتنوير : ١٥/٣٢٧ .

(2) روح المعانى : ١٩/١٣ .

(3) المصدر نفسه .

يقول صاحب التحرير والتنوير : (وإنما تمنى ألا يكون اتخذه خليلا دون أن يكون عصاه فيما سول له قصداً للاشمئزاز من خلته من اصلها ، إذ كان الإضلال من أحوالها .

وفيه إيماء إلى أن شأن الخلة الثقة بالخليل وحمل مشورته على النصح ، فلا ينبغى أن يضع المرء خلته إلا حيث يوقن بالسلامة من إشارات السوء ، قال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ") [1] آل عمران : ١١٨ .

ويلحظ العلامة الألوسى فى هذا التمنى محاولة للتنصل من ظلم النفس وإلقاء التبعة على الغير ، يقول فى هذا الشأن : (وهذا التمنى وإن كان مسوقا لإبراز الندم والحسرة لكنه متضمن لنوع تعلل واعتذار بتوريك جنايته إلى الغير) [2] .

" وفلان اسم يكنى عمن لا يذكر اسمه العلم ، كما يكنى بـ فلانة عمن لا يراد ذكر اسمها العلم سواء كان ذلك فى الحكاية أم فى غيرها " [3] .

وأحسب أن الداعى إلى الكناية بفلان هنا الخجل من ذكره صراحة - وقد أضله عن الذكر بعد إذ جاءه - فى مقابل الرسول الذى يوحى إليه من ربه وهو ناصح أمين له .

وغير خاف أن فى إيراد هذا المشهد فى ذلك اليوم العسير الذى يقع فيه التمنى المراد به التندم والتحسر من الظالم مرة بعد أخرى دعوة للمسلمين إلى ذكر عسر اليوم الآخر على كل من ظلم نفسه بالكفر ومخالفة الرسول ، وأخذ

---

(١) التحرير والتنوير : ١٥/١٩ .

(٢) روح المعانى : ١٤/١٩ .

(٣) التحرير والتنوير : ١٤/١٩ .

العبرة من سوء المصير الذى ينتظره إلى الحد الذى يجعله يتمنى مستحيلا يُتبعه بآخر فلا يجاب إلى أى منهما .

* * *

(٦) ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (القصص: ٧٩)

هذه صورة للتمنى الممكن وإن كان بعيد المنال : " يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون " : إنه تمنٍّ من جانب الذين يريدون الحياة الدنيا ممن فتنوا بقارون حين خرج عليهم فى زينته : حيث تهاوت نفوسهم ، وتمنوا أن يكون لهم مثل ما أوتيه من تلك الكنوز التى تنوء بمفاتحها العصبة أولو القوة والتى تعدُ هذه الزينة التى خرج على قومه فيها ظلالها وأثراً من آثارها .

وبالنظر فى أحوال صياغة التمنى فى الآية الكريمة يلحظ تقديم خبر "ليت" ، وهذا دال على حرصهم الشديد على أن يتحقق لهم هذا المتمنى ، ويكون لهم دون من سواهم .

ويلحظ أيضاً بناء الفعل "أوتى" للمجهول ، وهو دال على عدم تحريهم مصدر هذه الزينة التى هى عنوان ما وراءها من الكنوز الثمينة ، إذ ليس الذى يعنيهم شرعية الحصول عليها وما ينطوى عليه الترخص فى ذلك من سوء العواقب ، وإنما الذى شغلهم تمنى ملكية مثلها من أى مصدر وبأية وسيلة .

ولما كانوا على يقين من أن تمنيهم هذا موضوع إنكار ممن يريدون الآخرة - حيث الرجاء فيما عند الله ، وإيثار الآجل الباقى على العاجل الفانى عللوه وأكدوا رغبتهم فى حصوله بقولهم : "إنه لذو حظ عظيم" [1] .

([1]) ينظر : نظم الدرر : ١٤/٣٥٦ .

إنه تمن من جانب قصيرى البصائر - لكونهم أهل جهل - أن يؤتوا من أى قوت كان ، وبأى وجه كان مثل ما أوتى قارون من هذه الزينة وما تسبب عنه من العلم حتى يصيروا أصحاب أموال [1] .

وغير خاف أن ما تمناه الذين يريدون الحياة الدنيا ليس مستحيلا ، وإنما هو بعيد المنال ، فتمنيتهم مثلية ما لقارون من حيث الإمكان هو أمر ممكن غير متوقع الحصول وغير مطموع فى وقوعه .

يقول صاحب المطول : " لكنه - أى المتمنى - إذا كان ممكنا يجب ألا يكون لك توقع وطماعية فى وقوعه وإلا لصار ترجيا ويستعمل فيه لعل أو عسى " [2] .

وفرق كبير بين هذا الذى نحن بصدده وبين ما هو من قبيل تمنى المستحيل ، كقوله - تعالى - على لسان الذين وقفوا على النار : " يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين " (الأنعام : ٢٧)

* * *

(٧) (يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهَهُمْ فِى النَارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَسُولاَ) (الأحزاب : ٦٦)

فى مشهد مهين من مشاهد اليوم الآخر ، تقلب فيه وجوه الكافرين - وهى أكرم الأعضاء فى الأجساد فى النار ، بحيث تنال منها جميعاً كما يقلب الشواء على المشوَى لينضج على سواء - يصدر عنهم هذا التمنى : " يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا " .

---

(١) نظم الدرر : ١٤/٣٥٦ .

(٢) المطول : ٢٢٥ .

واستهلال التمنى بيا التى خلصت للتنبيه غرضه إسماع مـــن يتـــأثرون بحالهم التى بلغت من الفظاعة حدا يرثى له فى نظرهم ، والتمنى هنا يبرز ندمـــهم الشديد على تفريطهم فى جنب الله ، ومعصيتهم له سبحانه - ولرسوله - صلـــى الله عليه وسلم - وهو تندم غير مجد لكونه بعد فوات الأوان .

قال العلامة ابن عاشور : "وحرف يا" فى "يا ليتنا" لقصد إسماع مـن يرثى لحالهم مثل "يا حسرتنا" والتمنى كناية عن التندم على ما فات ، وكذلـــك نحو "يا حسرتنا" أى أن الحسرة غير مجدية) [1] .

لقد أوقف الكافرون على حقيقة طالما جادلوا فيها ، وهى أنه لا خلاص فى هذا اليوم إلا للمطيع ، ومن هنا كان تمنيهم أن يكونوا ضمن هؤلاء المطيعـين الآمنين الذين لا يحزنهم الفزع الأكبر ، ولكون هذا لم يحصل كـــان تحســـرهم وتندمهم على عدم الطاعة ، وهو أمر لا يغنى عنهم من الله شيئا .

ويلفت الإمام البقاعى الانتباه إلى إعادة العامل ضمن أسلوب التمـــنى فيقول : " ولما كان المقام للمبالغة فى الإذعان والخضوع أعادوا العامل فقـالوا : "وأطعنا الرسولا" الذى بلغنا عنه - سبحانه - حتى نعاذ من هـــذا العـــذاب . وزيادة الألف فى قراءة من أثبتها إشارة إلى إيذانهم بأنهم يتلـــذذون بذكـــره ، ويعتقدون أن عظمته لا تنحصر " [2] .

لقد تيقن الكافرون حينئذ من أن ما كان يأمرهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليس من عنده ، وإنما هو وحى إليه من ربه - ســـبحانه - وأنهـــم بمعصيتهم له - صلى الله عليه وسلم - إنما يعصون ربهم ، فتمنوا أن يكونوا مـــن الذين أطاعوا الله ورسوله المبلغ عنه ربه - عز وجل .

---

(1) التحرير والتنوير : ١١٦/٢٢ .

(2) نظم الدرر : ٤١٨/١٥ .

وهكذا تُسَدُّ أمام الكافرين المنافذ كلها فى أن يكون لهم ولى أو نصير ، وقد انتقلوا إلى دار الجزاء وفاتهم زمان العمل ومكانه بحيث لم يجدوا ما يتعلقون به - ولو كان واهيا - مما يبرد غلتهم سوى هذا التمنى الضائع الذى يظلون يرددونه ، فيتجدد تحسرهم وتندمهم فى كل مرة على ما كان منهم ، ولات حين مناص .

* * *

(٨) (قِيلَ ادْخُلِ الجَنةَ قَالَ يَالَيتَ قَوْمى يَعْلَمُونَ . بِمَا غَفَرَ لِى رَبِى وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ) (يس : ٢٦ ، ٢٧)

لما عاين الرجل المؤمن - صاحب يس - ما أعده المليك المقتدر فى دار كرامته لمن هم على شاكلته من الدعاة المخلصين تمنى متلهفا أن يعلم قومه بما أنعم الله به عليه ليسيروا على دربه فيغفر لهم ويعطوا عطاء المكرمين .

والتمنى وارد فى قوله سبحانه - يا ليت قومى يعلمون " .. وفيه يقول العلامة ابن كثير : قال ابن عباس : نصح قومه فى حياته بقوله : " يا قوم اتبعوا المرسلين " وبعد مماته فى قوله : يا ليت قومى يعلمون . بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين " [1] .

إنها صيحة مؤمن خلص من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ، صيحة تمنٍ كشفت عن معدن الأصفياء من العباد الذين لا يعرفون الانتقام ، قضوا حياتهم ناصحين لأقوامهم ، وكذا حالهم بعد مماتهم .

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ٣/٥٧٦ .

ويعلل الإمام الزمخشرى هذا التمنى بقوله : " وإنما تمنى علم قومه بحاله ليكون علمهم بها سببا لاكتساب مثلها لأنفسهم بالتوبة عن الكفر والدخول فى الإيمان والعمل الصالح المفضيين بأهلهما إلى الجنة " (١) .

ويلحظ فيما تمناه الرجل المؤمن عدوله عن أن يقول : مكرما إلى قوله فى التنزيل : "من المكرمين" وفى هذا يقول الإمام البقاعى : " ولما كان الأنس أعظم فوز عدل عن أن يقول مكرما إلى قوله : " من المكرمين" الذين أعطاهم الدرجات العلى بقطع جميع أعمارهم فى العبادة فنصح لقومه حيا وميتا يتمنى علمهم بإكرامه - تعالى - له ليعلموا مثل عمله فينالوا ما ناله " (٢) .

ويكشف هذا المعنى المتمنى عما تنطوى عليه نفوس الدعاة المخلصين من الترفع عن حظوظ الدنيا بالميل إلى إهلاك مجادليهم فى الدين أو الشماتة بهم عند النوازل ، وكذا يكشف عن توجه نفوسهم إلى الصلاح المحض والترفع عن سفساف الأمور ، يقول العلامة ابن عاشور : (لم يلهه دخول الجنة عن حال قومه ، فتمنى أن يعلموا ماذا لقى من ربه ليعلموا فضيلة الإيمان فيؤمنوا ، وما تمنى هلاكهم ولا الشماتة بهم ، فكان متسما بكظم الغيظ وبالحلم عن أهل الجهل ، وذلك لأن عالم الحقائق لا تتوجه فيه النفس إلا إلى الصلاح المحض ، ولا قيمة للحظوظ الدنية وسفساف الأمور " (٣) .

ولهذا التمنى خصوصيته عن الأساليب السابقة : فهو تمن خالص لا يشوبه أسى ، ولا يخالطه تندم ، بل هو منبعث من ذى نفس صافية ، قضى حياته ناصحا لقومه ، ولما انتقل من عالم الفناء إلى عالم البقاء ، وخلص من

---

(١) الكشاف : ٣/٢٨٤ .

(٢) نظم الدرر : ١٦/١١٤ .

(٣) التحرير والتنوير : ٢٣/٣٧١ .

تطاول الباطل إلى طمأنينة الحق نراه وقد اطلع على ما آتاه الله فى الجنة من المغفرة والكرامة ، يذكر قومه طيب القلب ، رضى النفس ، يتمنى لو يراه قومه ، ويرون ما آتاه ربه من الرضا والكرامة ، ليعرفوا الحق معرفة اليقين [1] .

والذى تمناه الرجل المؤمن من قبيل المستحيل حيث لا سبيل إلى حصوله إلا بأحد أمرين :

أحدهما : أن ينزل الوحى على المرسلين ليبلغوا أصحاب تلك القرية المشار إليها فى سورة يس [2] بما ناله الرجل المؤمن من فضل الله عز وجل وهو ما لم يحدثنا القرآن الكريم بوقوعه .

والأمر الثانى : أن يقبض قومه أو بعضهم فيطلعوا على ما أوتيه الرجل المؤمن من المغفرة والتكريم ثم يردوا إلى الدنيا فيتوبوا عن الكفر ويدخلوا فى الإيمان ، فيقضى بهم ذلك إلى الجنة ، وهذا ما لم يكن ، إذ لم تجر سنة الله - تعالى - فى خلقه على مثل ذلك .

* * *

(٩) ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ (الزخرف : ٣٨)

هذا تمن صادر عن نفس تتقطع حسرات على اتخاذها الشيطان خليلا ، وقد أعانت الياء التى استهل بها التمنى على أن تطلق النفس صيحتها مستعرة لتكشف عن مكنونها المحزون المكروب بسبب ما تيقنته من أنها كانت واهمة مضللة فى الحياة بفعل شيطان مقيض أضل وأغوى فى الدنيا ، وهاهو فى الآخرة يصحب من أضله إلى النار ، فيا له من قرين مذموم فى الدنيا دعا حزبه ليكون

---

(١) ينظر : فى ظلال القرآن : ٢٩٦٤/٥ .

(٢) المقصود قوله تعالى : "واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون" (يس : ١٣) .

من أصحاب السعير ، ويا له من قرين مذموم فى الآخرة يصحب أفراد حزبه إلى النار وبئس القرار .

واستهلال التمنى "بيا" الدالة على التلهف سبق بيانه فى نظائره من الشواهد . وتندم العاشى عن ذكر الرحمن لا طائل من ورائه لفوات محله ، وهو الدنيا التى كانت دار عمل ولا حساب خلافا لما عليه الحال فى الآخرة .

إن العاشى عن ذكر الرحمن إذا بعث يوم القيامة من قبره أخذه شيطانه بيده ، فلم يفارقه حتى يصيرهما الله إلى النار [1] .

ولما تمنى العاشى عن ذكر الرحمن مفارقة الشيطان ، وبلغ بها أقصى الغايات فرع على تمنيه هذا ذمه البالغ للشيطان فقال : " فبئس القرين " : قال العلامة ابن عاشور : (فبئس القرين بعد أن تمنى مفارقته فرع عليه ذما فالكافر يذم شيطانه الذى كان قرينا ، ويعرض بذلك للتفصى من المؤاخذة وإلقاء التبعة على الشيطان الذى أضله . والمقصود من حكاية هذا تفظيع عواقب هذه المقارنة التى كانت شغف المتقاربين ، وكذلك شأن كل مقارنة على عمل سيئ العاقبة وهذا من قبيل قوله تعالى : الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين [2] . (الزخرف : ٦٧) .

وغير خاف أن هذا التمنى من قبيل المستحيل الذى لا سبيل إلى حصوله ، إذ إن المتمنى انعدام التلاقى الذى كان فى الدنيا بين العاشى عن ذكر الرحمن وبين قرينه الشيطان ـ وهو ما لا سبيل إلى دفعه ـ فالملازمة بينهما كانت شغف الجانبين فى العاجلة ، ومن ثم يبعثهما الله فى الآخرة على ما كانا عليه فى الدنيا ، فيلزم الشيطان بقرينه دون مفارقة حتى يصيرهما الله إلى النار .

* * *

---

(١) ينظر : مفاتيح الغيب : ١٠١/٢٧ .

(٢) التحرير والتنوير : ٢١٣/٢٥ .

(١٠) (وَأما مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِشِمَالِه فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَابِيَـــه . وَلَمْ أَدْرِ ما حِسَابِيه . يَا لَيْتَها كَانَت الْقَاضِيَة) (الحاقة : ٢٥-٢٧)

هذا بيان لأحوال الأشقياء فى الآخرة عقب ذكر أحوال السعداء فيـــها جريا على نهج القرآن فى هذا الشأن لتتبين النفوس أحوال الفريقين ، ويتجلى لها تباين العاقبتين ، وحينئذ تختار النفس البصيرة مسلكها الـــذى ترتضيـــه . وفى الآيات الكريمة تمنيان كلاهما مستحيل أحدهما : تمنى الذى أوتى كتابه بشمالـــه - وقد نظر فيه فتذكر قبائح أفعاله وسيئ أقواله - عدم تسلم هذا الكتاب الـذى هو عليه لا له .

وفى علة هذا التمنى يقول العلامة ابن عاشور : " لأنه علم مـــن الاطلاع على كتابه أنه صائر إلى العذاب ، فيتمنى ألا يكون علم بذلك إبقـــاء على نفسه من حزنها زمنا فإن ترقب السوء عذاب .

وجملة "ولم أدر ما حسابية" فى موضع الحال من ضمير "ليتنى" والمعـنى : إنه كان مكذبا بالحساب ، وهو مقابل قول الذى أوتى كتـــاب بيمينـــه : " إنى ظننت أنى ملاق حسابيه " وجملة الحال معترضة بين جملتى التمنى . ويجـــوز أن يكون عطفا على التمنى : أى يا ليتنى لم أدر ما حسابيه : أى لم أعـــرف كنـــه حسابى : أى نتيجته . وهذا وإن كان فى معنى التمنى الذى قبله فإعادته تكريـــر لأجل التحسر والتحزن [١] .

والتمنى الثانى : كون موته الدنيا قاطعة لحياته ، وعدم بعثه بعدها أصلا [٢] .

---

(١) التحرير والتنوير : ١٣٥/٢٩ .

(٢) ينظر : حاشية الصاوى على الجلالين : ٢٤٢/٤ .

وعلة هذا التمنى يقول فيها الإمام الرازى نقلا عن قتـــادة : (تـــمنى الموت ، ولم يكن فى الدنيا عنده شئ أكره من الموت ، وشر من الموت ما يطلـب له الموت ، قال الشاعر :

وشر من الموت الذى إن لقيتـــه تـــمنيت منه الموت والموت أعظم [1]

ويسلط صاحب الظلال ضوءاً على وقفة هذا المتحسر علـــى مصـــيره المشئوم ، فيرى وقفته طويلة وحسرته مديدة ، ولهجته بائسة يطيـــل الســـياق عرضها حتى ليخيل للسامع أنها لا تنتهى إلى نهاية ، وأن هذا التحسر ســـيمضى بلا غاية وفى هذا الموقف يُراد أن يطبع فى النفوس سيطرة الحسرة وإيحاء الفجيعة ، ومن ثم يطول الموقف فى تنغيم وتفصيل ويتمنى ذلك للبائس أنه لم يـــأت هـــذا الموقف ، ولم يؤت كتابه ، ولم يدر ما حسابه ، كما يتمنى أن لو كـــانت هـــذه الكارثة هى القاضية التى تنهى وجوده أصلا فلا يعود بعدها شيئا [2] .

وهكذا يصدر عن هذا المتحسر الذى أوتى كتابه بشماله تمنيات متعددة ، يتحول فيها من تمن إلى آخر ، وكأنه فى كل مرة يسد أمامه منفذ التمنى الـــذى توهمه لنفسه يتحول عنه إلى غيره يجأر به بلهجة بائسة ونغمة يائسة ، فيتمنى أنـــه لم يأت هذا الموقف أصلا ، ولم يؤت الكتاب الذى أويته ، ولم يعـــرف نتيجـــة حسابه ، بل يتمنى أن تكون موتة الدنيا قاطعة لحياته فلا يبعث بعدها أبداً .

---

(1) مفاتيح الغيب : ٣٠/٧٠١ ، ٧٠٢ .

(2) ينظر : فى ظلال القرآن : ٦/٣٦٨٢.

وهذا كله يكشف عن عذاب نفسي بتأثير خجله مما تذكره من قبيح الأفعال وسيئ الأقوال ، كان وقعه على نفسه أشد مما ينتظره من عذاب النار وبئس القرار .

* * *

(١١) (إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِى كُنْتُ تُرَاباً) (النبأ : ٤٠)

هذا تمن مستحيل انطلقت به صيحة متوهجة صدرت عن نفس مكروبة ، بلغت بها الخيبة غايتها ، فصاحت تندب مصيرها المشئوم ، وتتحسر على ما هى فيه متمنية أن تنزل من علياء الإنسانية المكرمة إلى عنصر مهمل زهيد يداس بالأقدام فراراً من مواجهة هذا الموقف العصيب .

والتمنى الوارد على لسان الكافر فى الآية الكريمة قوله : " يا ليتنى كنت تراباً " .

"وخص قول الكافر دون المؤمن - وهو أحد الفريقين اللذين تناولهما "المرء" فيما قبل - بالذكر لدلالة قوله على غاية الخيبة ونهاية التحسر ، ودلالة حذف قول المؤمنين على غاية التبجبح ونهاية الفرح والسرور "[١] .

ومعنى هذا التمنى من الكافر : (ليتنى كنت ترابا فى الدنيا ، فلم أخلق ولم أكلف . أو ليتنى كنت ترابا فى هذا اليوم فلم ابعث . وقيل : يحشر الله - تعالى - الحيوان فيقتص للجماء من القرناء ، ثم يرده ترابا فيود الكافر حاله .

وقيل : الكافر إبليس يرى آدم وولده وثوابهم ، فيتمنى أن يكونه الشئ الذى احتقره حين قال : "خلقتنى من نار وخلقته من طين" [٢] .. الأعراف : ١٢ .

(١) تفسير القرآن العظيم : ٢٢٢/٤ بتصرف .

(٢) إرشاد العقل السليم : ٩٥/٩ .

وهكذا يكشف تمنى الكافر فى هذا الموقف العصيب عن نفس مفعمة بالتحسر والتندم لما أيقنته من سوء عاقبتها ، ولما علمته من حسن ثواب المؤمنين ، فصارت - وهى التى أنكرت الحق فى الدنيا وتعالت عليه - تتمنى أن تنعدم وتصير إلى عنصر مهمل زهيد فرار من الموقف الرهيب .

* * *

(١٢) (كَلا إِذَا دُكَت الأَرْضُ دَكاً دَكاً . وَجَاءَ رَبُكَ وَالمَلَكُ صَفاً صَفاً . وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجهَنَم يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَرُ الإِنْسَانُ وَأَنَى لَهُ لَمَا الذَكْرَى . يَقُولُ يَا لَيْتَنِى قَدَمْتُ لِحَيَاتِى) (الفجر : ٢١-٢٤)

رسمت الآيات الكريمة قبل موضع الشاهد من مواقف القيامة ما ترتجف منه القلوب ، وتخشع له الأبصار : حيث تسوى الأرض مرة بعد مرة ، ويتجلى الجبار المتكبر تجليا يليق بذاته - سبحانه ليحكم ويفصل . وتقف الملائكة صفا صفا ثم يجاء بجهنم فتقف متأهبة هى الأخرى - حينئذ يتذكر الإنسان الحق مع أن عهد الذكرى قد مضى ، فيقول متحسرا على تفريطه فى الدنيا ، متمنيا - وهذا مستحيل - أن يكون قد قدم شيئا ينفعه فى تلك الحياة الباقية التى هو بصددها : " يا ليتنى قدمت لحياتى " .

وهذا التمنى الصادر عن الإنسان الذى تقدم ذكره فى قوله تعالى - : فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه ..... الآية (يجوز أن يكون قولا باللسان تحسرا وتندما ، فتكون الجملة حالا من الإنسان ، أو بدل اشتمال من جملة "يتذكر" فإن تذكره مشتمل على تحسر وندامه ويجوز أن يكون قوله فى نفسه ، فتكون الجملة بيانا لجملة "يتذكر" [1] .

([1]) التحرير والتنوير : ٣٣٩/٣٠ .

وانظر إلى صيغة المضارع فى قوله تعالى – : " يقول يا ليتنى وما تـــدل عليه من إفادة تجدد هذا التمنى والاستمرار فى ترديد عبارته لفرط ندمه وتحسره على مصيره الذى يلقاه .

وفى سبب هذا التمنى يقول الإمام البقاعى : " ويمكن أن يكـــون سبب تمنيه هذا علمه بأنه كان فى الدنيا مختارا ، وأن الطاعات فى نفسها كـــانت ممكنة لا مانع له منها فى الظاهر إلا صرف نفسه عنها وعدم تعليق ما آتـــاه الله من القوى بها " [1] .

وإنما قال "لحياتى" ، ولم يقل : لهذه الحياة على معنى أن الحياة الجديـــرة بهذه التسمية ، ليست إلا الحياة فى الآخرة ، فهى كما أخبر القرآن الكريم عنها : " وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون " ـ العنكبـــوت : ٦٤ ـ أى لهى الحياة . فهو يتمنى أن يكون قد قدم خيرا فى الدنيا التى كانت حياته فيـــها منقطعة لحياته هذه التى هى دائمة غير منقطعة [2] .

وهكذا تصدر هذه الأمنية المستحيل تحقيقها عن نفس مكروبة ، تنـدب حظها يوم القيامة ، وتتحسر على مصيرها فيه ، هذا هو أقصى ما يملكه الإنسان الذى غفل عن حكمة الابتلاء بالمنع والعطاء ، والذى أكل التراث أكلا لمـــا ، وأحب المال حبا جما ، والذى لم يكرم اليتيم ، ولم يحض على طعام المســـكين ، والذى طغى وأفسد وتولى . يومئذ يتذكر الإنسان الحق الذى جحده فى الدنيا ، ويتعظ بما يراه وقد أنكره من قبل ، ولكن فات الأوان " وأنى لـــه الذكـــرى ؟

---

(1) نظم الدرر : ٢٢/٤٠ ، ٤١ .

(2) ينظر : مفاتيح الغيب : ١٦/٤٠٩ .

ولقد مضى عهدها ، فما عادت تجدى هنا فى دار الجـــزاء أحـــدا ! وإن هـــى إلا الحسرة على فوات الفرصة فى دار العمل فى الحياة الدنيا ! [١] .

وبعد ، فقد بدا من خلال تحليل الشواهد القرآنية السابقة أن التمـــنى بليت مشوب بالأسى ممزوج بالتندم على فرص سنحت فى حينها فوهّا المتمنـون على أنفسهم ، ولا سبيل إلى تداركها ، فقد مضى زمنـــها ، وعجلـــة الحيـــاة لا تدور إلى الوراء .

ولوحظ أن أغلب هذا الأسى والتندم صدر عن المتمنين عند وقوفـــهم على مصائرهم المشئومة يوم يقوم الناس لرب العالمين ـ [٢] حيث بددوا حيـــاهّم مكذبين بكل ما أنزل إليهم من ربهم ، مستحبين الحياة الدنيا علـــى الآخـــرة ، صادين عن سبيل الله وكانوا يبغونها عوجا . وهاهم اليوم يوقفون على ما أعـــد لهم من عذاب عظيم ، وكأن لسان الحال ينطق : "هذا ما وعد الرحمن وصـــدق المرسلون " .

ولم يخلص هذا التمنى لأمور الآخرة وحدها ، بل وقع بعضه فى الدنيـــا تحسرا وتندما على فوات غنيمة ، أو ضياع منفعة دنيوية ، أو عدم انقطاع ذكر بين الأهل تجنبا لمحنة نازلة ، أو نصيب شحيح فى الحياة إذا قورن بآخرين ممـــن أوتوا ملكا عظيما [٣] .

وقد وردت شواهد التمنى بليت فى حيز المستحيل الـــذى لا يرجـــى حصوله باستثناء شاهد واحد ورد فى إطار الممكن لكنه بعيد المنال [٤] .

---

(١) ينظر : فى ظلال القرآن : ٣٩٠٩/٦ .

(٢) الشواهد : ٢ ، ٥ ، ٧ ، ٩ ، ١٠ ، ١٤.

(٣) الشواهد : ١ ، ٣ ، ٤ ، ٦ .

(٤) الشاهد : ٦ .

ولوحظ أن نفوس المتمنين حين صدر عنهم ما تمنوا كانت غاية في الضيق وإن تفاوت درجته حسب المقام الصادر فيه ، لكن حالة واحدة صدر فيها التمنى عن نفس مطمئنة ، دون أن يشوبه أسى أو يخالطه تندم : إنه تمن صادر عن نفس مُكَرَّمَة قيل لصاحبها : "ادخل الجنة" ولحظتها تمنى لو يعلم قومه بما أعطاه ربه وأرضاه ليعلموا مثله وينالوا ما ناله [1] .

(1) الشاهد رقم : ٨ .

(التمنـــى بهـــل)

سبقت الإشارة إلى أن إفادة التمنى ليست مقصورة على "ليت" التى هى الأصل فى هذا الباب وإنما استعمل اللسان العربى أدوات أخرى تفيد معنى التمنى على سبيل المجاز ، وذلك لا يخلو من نكتة بلاغية تقتضى العدول عن الأصل إلى هذا الذى أوثر استعماله .

ومن هذه الأدوات التى يتمنى بها على سبيل المجاز "هل" يقول البلاغيون : (وقد يتمنى بهل : نحو هل لى من شفيع : حيث يعلم أن لا شفيع ، لأنه حينئذ يمتنع حمله على حقيقة الاستفهام لحصول الجزم بانتفائه) [1] .

والسؤال هنا : هل يقتصر الأمر على مجرد إنابة "هل" عن "ليت" فى إفادة التمنى ؟

ليس الأمر - بالطبع - مجرد وضع أداة مكان أخرى ، وإنما يتعداه إلى بروز فرق كبير بين ما عدل عنه وما عدل إليه : فهل اصل فى الاستفهام - وهو لا يكون إلا فى الممكن - واستعمالها مجازا فى التمنى الذى هو مستحيل أو مستبعد - يفرغ عليها من هذا الممكن الذى لم تنسلخ عنه بهذا الاستعمال الطارئ عليها ، وكأن المتمنى لفرط تمنيه فى تحقيق ما يتمناه يؤثر "هل" فى تعبيره ويرى أنها أداة طيعة ووسيلة تعبيرية مرنة تتفق وتطلعات نفسه خلافا لليت التى توصد الباب أمامه أو تكاد .

وفى نكتة استعمال "هل" فى إفادة معنى التمنى يقول صاحب المطول : " والنكتة فى التمنى بهل والعدول عن ليت هو إبراز المتمنى - لكمال العناية به - فى صورة الممكن الذى لا جزم بانتفائه " [2] .

---

(1) مختصر السعد ضمن شروح التلخيص : ٢/٢٤٠ .

(2) المطول : ٢٢٥ .

ويقول العلامة ابن يعقوب : " والسر فى العدول عن ليت - التى هى الأصل فى التمنى - إلى هل فى نحو هذا الكلام إبراز المتمنى فى صورة المستفهم عنه الذى لا جزم بانتفائه ، لإظهار كمال العناية به حتى لا يستطاع الإتيان به إلا فى صورة الممكن الذى يطمع فى وقوعه .. والوجه المذكور أبلغ فى هذا الإظهار ، فإذا اقتضى المقام الأبلغية .. عدل عن أصل التمنى إلى صورة الاستفهام إظهاراً لزيادة كمال العناية " [1] .

فإلى تحليل شواهد استعمال (هل) فى معنى التمنى .

* * *

(١٣) (هَلْ يَنْظُرُون إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يومَ يَأْتِى تَأْوِيلُه يقول الذِينَ نَسُوُه مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبَنَا بِالحَقَ فَهَلْ لَنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الذِى كُنَا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُم وَضَلَ عَنْهَم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

(الأعراف : ٥٣)

سُبِقت الآية الكريمة - موضع الشاهد - ببيان أن الجاحدين الذين كفروا بالله - تعالى - وبنعمه فى الدنيا ونسوا لقاءه يوم القيامة - كان الله - تعالى - قد آتاهم كتابا عظيما ، وهو معجز فى نظمه ومعناه وسائر علمه ومغزاه ، ما فرط الله فيه من شئ : اشتمل على أدلة التوحيد ، وفصل التشريع ، وأبان الصراط المستقيم ، لكنهم لم يؤمنوا به .

وتأتى الآية التى نحن بصددها لتبين أنهم بمنزلة منتظرى المآل الذى توعد الله به كل كفار أثيم ، ويوم يأتى هذا المآل - وهو يوم القيامة - يعترف هؤلاء الذين غفلوا عن وجوب الإيمان بذنوبهم ، ويقرون بصدق ما جاء به رسلهم ،

---

(١) مواهب الفتاح : ٢/ ٢٤٠ .

ويرتبون على ذلك الإقرار تمنيهم أن يجابوا إلى أحد أمرين : الشفاعة لهم فيما اقترفوا من جرائم أو الرجوع إلى الدنيا وإحسان العمل فيها - وهيهات هيهات أن يجابوا إلى شئ من ذلك فهم لم يؤمنوا بالغيب ولا أوقعوا الإيمان فى دار العمل ! فما نفعهم إقرارهم .

والتمنى هنا ورد مرتبا ومفرعا بالفاء على الإقرار بخطئهم فى تكذيب الرسل : " قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا " .

يقول العلامة ابن عاشور : " وقولهم : قد جاءت رسل ربنا بالحق ، خبر مستعمل فى الإقرار بخطئهم فى تكذيب الرسل ، وإنشاء للحسرة على ذلك وإبداء الحيرة فى ماذا يصنعون ، ولذلك رتبوا عليه وفرعوا بالفاء قولهم : فهل لنا من شفعاء " إلى آخره [1] .

إن الجاحدين هنا لما عاينوا ما توعدهم الله - تعالى - به مما سبق أن أنذروا به على السنة الرسل - عليهم السلام - أقروا بحقية ما جاءوا به وتعلقوا متلهفين بمنقذ من سوء المصير الذى آلوا إليه ، ولذا ورد التركيب على ألسنتهم على وفق هذا المعانى فى نفوسهم : " فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل " ولما كانت ليت قد تعارف المتكلمون بالعربية على أن المتمنى بها مستحيل أو بعيد المنال عدلوا عن استعمالها إلى أداة أخرى - "هل" - تبرز متمناهم فى صورة الممكن الذى لا جزم بانتفائه لتبقى احتمالية الوقوع قائمة ، وهذا مسلك يرضى بعض الطبائع البشرية التى قد تيأس من الشئ ومع هذا تطلبه . ينقل الإمام الرازى عن القاضى ابن عطية فى معرض رده عن سؤال : أسألوا مع الرجاء والجواز ، أو مع اليأس ؟ (.. وقال القاضى : بل مع اليأس ،

---

(1) التحرير والتنوير : ٨ / ١٥٥ ، ١٥٦ .

لأنهم قد عرفوا دوام عقابهم وأنه لا يفتر عنهم ، ولكن الآيس من الشـــئ قـــد يطلبه ، كما يقال فى المثل : الفريق يتعلق بالزبد ، وإن علم أنه لا يغيثه) [1] .

وقد ذكر العلامة ابن عاشور أن الاستفهام بهل يحتمل ثلاثة معـــان : أن يكون حقيقيا ، أو أن يكون مستعملا فى التمنى ويجوز أن يكون مســـتعملا فى النفى على معنى التحسر والتندم [2] .

وأحسب أن استعمال "هل" بمعنى التمنى فى مثل هذا المقام هـــو الأبـــر بالمعنى استنادا إلى ما أورده الإمام الرازى من أن هؤلاء الجاحدين قـــد عرفـــوا دوام عقابهم وأنه لا يخفف عنهم منه شئ ، لكنه تعلق الغريق بالزبد مع يقينه أنه لا يغيثه ، والأنسب بمن حالهم كذلك أن يكون سؤالهم مستعملا فى التمنى .

وهم لم يأتوا بالأداة الموضوعة له أصلا ليجعلوا إمكانية تحقيق ما يتمنونه قائمة لا مقطوعا بانتفائها ، وكأن فى هذا الوهم الذى صنعوه لأنفســـهم مـــا يرضى طبائعهم التى تؤثر أن تصوغ متمناها - وقد أيقنت باستحالته - فى عـــداد المستفهم عنه لتبقى إمكانية تحقيقه قائمة دون أن يوصدوا الباب أمام أنفســـهم من أول الأمر باستعمال "ليت" المقطوع باستحالة متمناها .

والجاحدون - لكمال عنايتهم بتحقيق المتمنى - تـــآزرت فى مقولتـــهم عناصر أسلوبية عكست ما انطوت عليه نفوسهم منها :- استعمال "هـــل" فى التعبير عن المتمنى على خلاف الأصل فى أسلوب التمنى ، وقد سبق تحليله .

- تقديم الجار والمجرور "لنا" على متعلقه "من شفعاء" لتكون الشفاعة مختصـــة بهم إذ إنهم معنيون بحالهم دون من سواهم .

---

(1) مفاتيح الغيب : ٧ / ٨٨ ، ٨٩ .

(2) ينظر : التحرير والتنوير : ٨ / ١٥٦ .

- مـــجئ "من" المؤكدة (فتفيد توكيد العموم فى المستفهم عنه ، ليفيد أنـــهم لا يسألون عمن توهـــموهم شفعاء من أصنامهم ، إذ يئسوا منهم ، كمـــا قال تعالـــى : "وما نرى معكم شفعاءكم الذيـــن زعمتم أنـــــهم فيكـــم شركاء [1] "بل هم يتساءلون عن أى شفيع لهم ، ولو يكون الرسول - عليه الصلاة والسلام - الذى ناصبوه العداء فى الحياة الدنيا) [2] .

- إسهام جواب التمنى : فيشفعوا لنا : فى تلبية حاجتـــهم الملحـــة وكمـــال عنايتهم بطلب من يسعى بالشفاعة لهم عند الله سبحانه - وكأنـــه تكـــرار لطلب الشفاعة وتأكيد له .

والذى تمناه الجاحدون أحد أمرين : الشفاعة - وبدءوا بها لأنهـــا الأصل فى التمنى وهى إذا حصلت فلا حاجة بهم إلى شئ آخـــر - أو الـــرد إلى الدنيا ، وهو وإن كان سيمنحهم فرصة للخلاص من سوء المصير الآنى لكنـــه سوف يضعهم موضع المكلفين بالشرائع يخطئون ويصيبون ، وسوف ينتـــهون إلى موقف حساب لا يضمنون عواقبه ، ومن هنا كانت الشفاعة أصلا فى التمـــنى ، والرد إلى الدنيا يليها مرتبة فى المتمنى .

(والمراد بالعمل فى قولهم "فنعمل" ، ما يشمل الاعتقاد ، وهو الأهـــم ، مثل اعتقاد الوحدانية والبعث وتصديق الرسول - عليه الصلاة والســـلام - لأن الاعتقاد عمل القلب ، ولأنه تترتب عليه آثار عملية أقوال وأفعال وامتثـــال . والمراد بالصلة فى قوله " الذى كنا نعمل " ما كانوا يعملونه من أمـــور الديـــن بقرينة سياق قولهم : " قد جاءت رسل ربنا بالحق ، أى فنعمل ما يغـــاير مـــا

---

(1) الأنعام : ٩٤ .

(2) التحرير والتنوير : ٨ / ١٥٦ .

صممنا عليه بعد مجئ الرسول ـ عليه الصلاة والسلام) [1] وفى التعبير باسم الموصول تحقير لعملهم الذى صدر عنهم فى الدنيا .

* * *

(١٤) (وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ . فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ . كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِى قُلوبِ الْمُجْرِمِينَ . لاَ يُؤْمِنُون بِهِ حتى يروا العَذَابَ الأَلِيمَ . فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ . فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ) (الشعراء : ١٩٨-٢٠٣)

وردت الآية الكريمة ـ موضع الشاهد ـ فى سياق قرآنى محكم يبرز أن الكفار لا يجدى معهم أى برهان على صحة بنوة محمد صلى الله عليه وسلم ـ وصدق ما جاء به من التنزيل ، فقد انطوت قلوبهم على التكذيب ، ولا سبيل إلى أن يتحولوا عما هم عليه من الجحود والإنكار حتى يعاينوا العذاب الشديد الذى توعدوا به ، فينزل بهم فجأة من غير توقع فيقولوا عند نزوله تحسراً وتندما على ما فاتهم من الإيمان وتمنيا للإمهال : هل نحن منظرون ، ولكن لا يجابون .

والأداة المستعملة فى التمنى "هل" فى قوله تعالى : هل نحن منظرون ، على سبيل المجاز . وسر العدول إليها عن ليت إبراز متمناهم ـ وهو الإمهال والإنظار الطويل حتى يتمكنوا من الإيمان والعمل الصالح فى صورة المستفهم عنه الذى لا جزم بانتفائه لإظهار كمال عنايتهم به وبالغ طمعهم فى وقوعه .

قال القاضى ابن عطية : (هل نحن منظرون "أى مؤخرون" . وهذا على جهة التمنى منهم والرغبة حيث لا تنفع الرغبة) [2] .

---

(١) التحرير والتنوير : ٨ / ١٥٧ .

(٢) المحرر الوجيز : ٤ / ٢٤٤ .

وللإمام الزمخشرى لطيفة بلاغية فى معنى التعقيب بالفاء حيث يرى أنها للتعقيب الرتبى دون الوجودى : يقول صاحب الكشاف : (فإن قلت ما معنى التعقيب فى قوله فيأتيهم بغتة فيقولوا ؟ قلت : ليس المعنى ترادف رؤية العذاب ومفاجأته وسؤال النظرة فيه فى الوجود ، وإنما المعنى فى ترتيبها فى الشدة ، كأنه قيل : لا يؤمنون بالقرآن حتى تكون رؤيتهم للعذاب فما هو أشد منها وهو لحوقه بهم مفاجأة ، فما هو اشد منه وهو سؤالهم النظرة . ومثال ذلك أن تقول لمن تعظه : إن أسأت مقتك الصالحون فمقتك الله : فإنك لا تقصد بهذا الترتيب أن مقت الله يوجد عقيب مقت الصالحين ، وإنما قصدك إلى ترتيب شدة الأمر على المسئ وأنه يحصل له بسبب الإساءة مقت الصالحين ، فما هو اشد من مقتهم وهو مقت الله) [1] . وعليه تكون الفاء للتعقيب الرتبى دون الوجودى .

(وجئ بعد هل بالجملة الاسمية الدالة على الثبات : أى تمنوا إنظارا طويلا يتمكنون فيه من الإيمان والعمل الصالح) [2] .

وغير خاف أن مقولة التمنى هذه - هل نحن منظرون - تصدر عنهم حين يأتيهم العذاب بغتة فترددها ألسنتهم فى تحسر وتندم على ما فرطوا فى جنب الله ، وهم على يقين من أنهم لن يجابوا إلى إنظار أو إمهال ، وشأنهم فى هذا التحسر والتندم " كما يستغيث المرء عند تعذر الخلاص ، لأنهم يعلمون فى الآخرة أن لا ملجأ ، لكنهم يذكرون ذلك استرواحا " [3] .

---

(1) الكشاف : ٣ / ١٢٨ .

(2) التحرير والتنوير : ١٩/١٩٥ .

(3) مفاتيح الغيب : ١٢/١٧٢ .

وتختم الآية الكريمة بما يقرر خسرانهم أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها وذهاب ما كانوا يعبدونهم من دون الله دون أن يشفعوا فيهم أو ينصرونهم أو ينقذوهم مما هم فيه .

* * *

(١٥) (قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ) (غافر : ١١)

لما أُخبر الكافرون بأن بغض الله - عز وجل - لهم يوم كانوا يدعون إلى الإيمان فيكفرون أشد من بعضهم لأنفسهم التى أوردتهم موارد العذاب يوم القيامة اعترفوا بربوبيته - سبحانه - وأقروا بقدرته - عز وجل - على الإماتة اثنتين والإحياء اثنتين [1] ، ورتبوا على ذلك قدرته على غيرهما من الأمور متمنين خروجا - بأى وجه كان - مما هم فيه من العذاب .

والمتمنى هنا العودة إلى الدار الدنيا لعمل الصالحات التى أساسها الإيمان بالله الواحد غير ما كانوا يقترفون من كفر بالله - سبحانه - وما يترتب عليه من فساد فى الأخلاق وسوء السلوك : " فهل إلى خروج من سبيل " وكلام الكافرين هذا (كلام من غلب عليه اليأس والقنوط ، وإنما يقولون ذلك تعللا وتحيرا) [2] .

وقد اشتملت صياغة التمنى - " فهل إلى خروج من سبيل ، على عناصر أسلوبية استدعاها المقام منها : - العدول عن "ليت" التى هى الأصل فى تمنى المستحيل أو بعيد المنال : فالكافرون لكمال عنايتهم بالمتمنى عدلوا عن تلك

---

(١) تفسير ذلك قوله - تعالى : " كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون " (البقرة : ٢٨) .

(٢) الكشاف : ٣/٣٦٤ .

الأداة التى تجزم بانتفاء متمناهم وعدم إجابتهم إليه ، وآثروا التعبير "بهل" لتبقى احتمالية تحقيق المتمنى قائمة . وما دام حالهم - كما ذكر صاحب الكشاف : قد غلب عليه اليأس والقنوط فلا معنى لأن يكون السؤال بهل على حقيقته ، بل ينصرف إلى معنى التمنى الذى هو الأنسب بحال اليائس القانط .

- تقديم الجار والمجرور على متعلقه "من سبيل" وترتيب الألفاظ فى النطق يأتى على وفق ترتيب المعانى فى النفس ، وهم قدموا الأهم عندهم - وهو الخروج - والذى هم ببيانه أعنى ، فالخروج غاية والسبيل وسيلة إليه ، والغاية هى مدار ومناط تعلق النفوس .

تنكير "خروج" غرضه التنويع : قال العلامة الألوسى : (فهل إلى خروج : أى إلى نوع خروج من النار أى فهل إلى خروج سريع أو بطئ أو من مكان فيها إلى آخر أو إلى الدنيا أو غيرها . "من سبيل" طريق من الطرق فنسلكه ، مثل هذا التركيب يستعمل عند اليأس ، وليس المقصود به الاستفهام ، وإنما قالوا من فرط قنوطهم تعللا أو تحيرا) [1] .

وهكذا يبلغ اليأس والقنوط بالذين كفروا مبلغه ، فتراهم فى حيرة من أمرهم ، ولا سبيل أمامهم سوى تمنى أى شئ من خروج وبأية وسيلة يبلغون بها إليه ، فأجيبوا بأن لا سبيل إلى عودهم ومرجعهم إلى الدار الدنيا ، إذ إن سجاياهم لا تقبل الحق ولا ترتضيه ، بل تمجه وتنحيه .

* * *

(1) روح المعانى : ٢٤ / ٣٠٧ .

(١٦) ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (الشورى : ٤٤)

لما قررت الآيات الكريمة - قبل موضع الشاهد - صفات المؤمنين الذين أخلصوا العمل لوجه ربهم ، فادخر لهم عنده - سبحانه - ما هو خير وأبقى من متاع الدنيا الزهيد بالقياس إلى ما عند الله - أعقبه بيان حال الضالين وما ينتظرهم من خزى وهوان فقيل : ومن يضلل الله فما له من ولى من بعده .. " الآية .

وحين نأتى إلى أحوال نظم الآية الكريمة يلحظ أن التمنى - " هل إلى مرد من سبيل " وارد على لسان الظالمين الذين سبق ذكرهم فى صدر الآية بالموصول وصلته "ومن يضلل الله" تنبيها على أنهم لا يضعون شيئا موضعه ، بل يجاوزون الحد فى كل ما يصدر عنهم .

<u>ومقوله التمنى</u> : "هل إلى مرد من سبيل" أنطق الظالمين بها فظيع ما اطلعوا عليه وسوء ما سيحل بهم ، وقد بلغت بهم الحيرة مبلغها وتناهت حالهم ولهفتهم فى الظهور بحيث لا يختص بها راءٍ دون آخر .

<u>يقول العلامة ابن عاشور</u> : (والخطاب فى "ترى" لغير معين : أى تناهت حالهم فى الظهور فلا يختص به مخاطب ، أو الخطاب للنبى - صلى الله عليه وسلم - تسلية له على ما لاقاه منهم من التكذيب . والمقصود الإخبار بحالهم أولا ، والتعجيب منه ثانيا ، فلم يقل : والظالمون لما رأوا العذاب يقولون ، وإنما قيل : " وترى الظالمين " للاعتبار بحالهم " [١] .

([١]) <u>التحرير والتنوير</u> : ١٢٥/٢٥ .

ويلحظ الإتيان بالماضى فى بيان زمن التمنى الذى محله يوم الحساب ، وفيه يقول الإمام البقاعى : (ولما كان عذابهم حتما عبر عنه بالماضى فقال : لما رأوا العذاب" أى المعلوم مصير الظالم إليه رؤية محيطة بظاهرة وباطنه يتمنون الرجعة إلى الدنيا لتدارك ما فات من الطاعات الموجبة للنجاة) [1] .

والمتمنى رجوع إلى الدنيا التى هى دار عمل ولا حساب وصياغته : " هل إلى مرد من سبيل " وفيه عبر بهل بدلا من "ليت" تفادياً لما تدل عليه من استحالة المتمنى أو بعد مناله ، لكن "هل" تبرز المتمنى - لكمال العناية به - فى صورة الممكن الذى لا جزم بانتفائه وهو الأنسب بحالهم .

ويلحظ فيه أيضا تقديم الجار والمجرور - "إلى مرد" على متعلقه "من سبيل" وهذا يكشف عن مكنون نفوسهم فالمرد هو الغاية والسبيل هو الوسيلة الموصلة إليها ، ولذا قدموا الأهم عندهم .

ويلحظ أيضا تنكير "مرد" وكذا "سبيل" : قال العلامة الألوسى : (وتنكير "مرد" وكذا "سبيل" للمبالغة) [2] .

وأحب أن ما عناه الألوسى المبالغة فى تمنى الرجوع إلى الدنيا بأية طريقة كانت : إنهم مبالغون ومتلهفون على رجوع لو وقع لكان عظيم الشأن فى نظرهم ، إذ هو مناط تعلق نفوسهم وهو المخلص لهم من سوء المصير الذى أطلعوا عليه ، وهم يتمنون هذا الرجوع بأية وسيلة من عفو أو شفيع حتى لو كان رسولهم الذى كذبوه وسخروا منه فى الدنيا .

---

(1) نظم الدرر : ٣٤٢/١٧.

(2) روح المعانى : ٥٠/٢٥ .

ويا له من ظرف عصيب هذا الذى يصدر فيه تمنى الرجوع إلى الدنيا من الظالمين الذين كانوا طغاة بغاة فأمسى الذل مظهرهم البارز فى يوم الفصل : إنهم يرون العذاب فتتهاوى كبرياؤهم ، ويتساءلون فى انكسار "هل إلى مرد من سبيل" فى هذه الصيغة الموحية باليأس مع اللهفة ، والانهيار مع التطلع إلى بارقة للخلاص ! [1] .

* * *

(١٧) (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً فَنَقَبُوا فِى البِلاَدِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ) (ق : ٣٦)

فى الآية الكريمة إخبار عن عموم إهلاك قد وقع فى جميع الأزمنة لكل الأمم التى حقت عليها كلمة العذاب قبل قوم النبى - صلى الله عليه وسلم - وقد كانوا فى غاية القوة ، وكانوا أشد بطشا وقوة من قريش .

وفى هذا تسلية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث إن من كانوا أشد سطوة وشدة من قومه قد أهلكوا ، فيكون إهلاك القوم - وهم دونهم فى القوة - أمرا هيناً - فى نظر النبى صلى الله عليه وسلم - إذا اقتضت إرادة الله ذلك .

وفيه أيضا تهديد للمكذبين من قومه - صلى الله عليه وسلم - بأن أهلك من كانوا قبلهم وكانوا أشد منهم بطشا ، وأنهم سيشربون من الكأس نفسها إذا أصروا على كفرهم واستكبروا استكبارا وما ذلك على الله بعزيز .

والتمنى فى الآية الكريمة قوله تعالى : "هل من محيص"، وقد استندت فى جعل هذه العبارة القرآنية للتمنى إلى ما قاله العلامة الألوسى : (هل من محيص : على إضمار قول هو حال من واو "نقبوا" أى قائلين : هل لنا مخلص من الله

([1]) ينظر : فى ظلال القرآن : ٣١٦٨/٥ .

تعالى أو من الموت ؟ أو على إجراء التنقيب لما فيمن معنى التتبع والتفتيش مجرى القول على ما قيل ..) [1] .

إن هذه المقولة - "هل من محيص" - حين تصدر عن أشخاص تيقنوا أن كلمة العذاب قد حقت عليهم ، وأن إهلاكهم أمر واقع لا مفر منه - تكون أقرب إلى التمنى من غيره حيث تعلقوا بمهرب من هذا الهلاك الذى نزل بساحتهم ، وهيهات هيهات لما يتمنون .

وأداة التمنى "هل" وهى مستعملة فيه على سبيل المجاز - كما سبق بيانه فى صدر هذا المبحث ، وعلة ذلك إبراز تمنيهم المهرب من الهلاك ، أو المخلص لهم من الله عز وجل ، أو من الموت الذى أطبق عليهم - وهو مستحيل - فى صورة الأمر الممكن القابل للتحقيق .

وإذا كانت عبارة التمنى فى الشاهد السابق على الآية التى نحن بصددها - "هل إلى مرد من سبيل" - قد نص صاحب الدرر على كونها للتمنى - فإنى أحسب أنها وقوله تعالى : "هل من محيص" من واد واحد وأنها أقرب إلى التمنى من أى معنى آخر .

---

(1) روح المعانى : ٣٤١/٢٦ .

(التمنـــى بلـــو)

أولاً : لو التى بمعنى ليت .

ثانياً : لو المسبوقة بالودادة .

هذا التمنى -كسابقه- وارد على خلاف الأصل فى الاستعمال ، حيث أفيد معناه بغير أداته الأصلية ، وعبر عنه بلو .

فما أصل وضعها ؟ وما الجامع بين ما كانت عليه وضعا وما استعملت فيه مجازا ؟ وما مزية العدول عن التمنى بليت إلى إفادته بلو ؟

ففيما يتعلق بأصل لو التى تفيد التمنى ذكر العلامة ابن هشام ما نصه : (واختلف فى "لو" هذه ، فقال ابن الضائع وابن هشام : هى قسم يرأسها لا تحتاج إلى جواب كجواب الشرط ، ولكن قد يؤتى لها بجواب منصوب كجواب ليت . وقال بعضهم : هى لو الشرطية أشربت معنى التمنى بدليل أنهم جمعوا لها بين جوابين : جواب منصوب بعد الفاء ، وجواب باللام كقوله :

فلو نبش المقابر عن كليب فيخبر بالذنائب أى زير
بيوم الشعثمين لقر عينا وكيف لقاء من تحت القبور ؟

وقال ابن مالك : هى لو المصدرية أغنت عن فعل التمنى [1] .

والغالب على هذه الأقوال أن لو ليست أصلا فى التمنى ، وأن إفادتها لمعناه على خلاف الوضع اللغوى لها ، وهو ما يعرف بالاستعمال المجازى عند أرباب البيان .

وعلامة لو - المستعملة فى التمنى - أن يصح موضعها ليت ، نحو : لو تأتينا فتحدثنا ، كما تقول ليتك تأتينا فتحدثنا . ومنه قوله تعالى : "فلو أن لنا كرة" ولهذا نصب "فنكون" فى جوابها ، لأنها أفهمت التمنى ، كما انتصب "فأفوز" فى جواب "ليت" يا ليتنى كنت معهم [2] .

---

(1) مغنى اللبيب : ١ / ٢٦٧ .

(2) البرهان فى علوم القرآن : ٤/٣٧٥ .

وفيما يتصل بمسوغ استعمال "لو" فى إفادة معنى التمنى مجازا تلحظ هذه العلاقة الوثيقة بين الامتناع - الذى بنى عليه الوضع اللغوى للو - وبين التمنى الذى آلت إليه مجازا : فالشئ الممتنع مقطوع بعدم وقوعه ، والسبيل الوحيد لتعلق النفس البشرية به هو التمنى ، إذ إنه المختص دون سائر الأساليب بما لا يرجى حصوله لاستحالته أو لبعد مناله ، فالامتناع وعدم توقع الحصول من واد واحد ، ومن هنا كانت العلاقة المسوغة لخروج "لو" عن معناها الأصلى -وهو الامتناع- إلى إفادة التمنى على سبيل المجاز .

قال العلامة ابن يعقوب : (ووجه استعمالها كثيرا فى التمنى أنها فى الأصل تدخل على الممنوع والمحال ، والمحال هو المتمنى كثيرا) [1] .

وفى مزية العدول عن التمنى بليت إلى التمنى بلو يقول العلامة الدسوقى : (إن نكتته الإشعار بعزة متمناه ، حيث أبرزه فى صورة ما لم يوجد ، لأن لو بحسب أصلها حرف امتناع) [2] .

فإلى تحليل هذه الشواهد :

---

(١٨) (وَقَالَ الَّذِينَ اتبَعُوا لَوْ أَنْ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبرَأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرءُوا مِنا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْ النَارِ) (البقرة : ١٦٧)

وردت الآية الكريمة فى سياق قرآنى يطلعنا على بعض أحوال الضالين يوم القيامة : حيث يُرجع بعضهم إلى بعض القول ، ويلقى كل طرف التبعة على الآخر ، فيتبرأ الرؤساء من الأتباع ، وتنقطع بينهم المودة التى زعموها ، وهنا

---

(١) مواهب الفتاح : ١٤١/٢ .

(٢) حاشية الدسوقى على شروح التلخيص : ١٤١/٢ .

يتمنى الأتباع العودة إلى الدنيا ثأراً لكرامتهم ممن تبرءوا منهم ، وعجزوا عن وقاية أنفسهم فضلا عن وقاية أتباعهم .

والتمنى فى الآية الكريمة مقول قول الذين اتبعوا : "لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا" يقول صاحب الكشاف :"لو" فى معنى التمنى ، ولذا أجيب بالفاء الذى يجاب به التمنى ، كأنه قيل : ليت لنا كرة فنتبرأ منهم [1] .

والمتمنى هو رجوع الأتباع إلى الدنيا ومعهم الرؤساء - ثأرا منهم لا إشفاقا عليهم - فينزل بهم من الهول الداهم ما يعوزهم إلى ناصر من الأتباع فلا يجدونه .

يقول الإمام الرازى : (فذلك تمنٍّ منهم لأن يتمكنوا من الرجعة إلى الدنيا وإلى حال التكليف فيكون الاختيار إليهم حتى تبرءوا منهم فى الدنيا ، كما تبرءوا منهم يوم القيامة ، ومفهوم الكلام أنهم تمنوا لهم فى الدنيا ما يقارب العذاب فيتبرءون منهم ولا يخلصونهم ولا ينصرونهم كما فعلوا بهم يوم القيامة ، وتقديره : فلو أن لنا كرة فنتبرأ منهم .

وقد دهمهم مثل هذا الخطب - كما تبرءوا منا والحالة هذه ، لأنهم إن تمنوا التبرؤ منهم مع سلامة فليس فيه فائدة) [2] .

وهذا الذى تمناه الأتباع من قبيل تمنى المستحيل الذى لا يتوقع حصوله ، إذ إن كلمة الله - عز وجل - قد سبقت بأنه لا رجعة إلى الدنيا بعد أن أتاها أمر ربها فجعلها حصيدا كأن لم تغن بالأمس .

---

(1) الكشاف : ١٠٦/١ .

(2) مفاتيح الغيب : ٦٢٦/٤ .

والعدول عن ليت إلى إفادة التمنى بلو مزيته الإشعار بعـزة المتمـنى ، وكأن هؤلاء الأذناب لما كانوا على يقين من أن الرجعـة إلى الدنيـا مقطـوع باستحالتها آثروا "لو" فى التعبير عن تمنيهم دلالة على بعد المتمنى ، وهذا بدوره يكشف عن انقطاع أملهم وبلوغ اليأس بهم مبلغه ، فأمسوا يطرحونهـا أمنيـة يائسة تفتقد من مقومات التحقيق أدناها وتبرز شعور اللهفة اليائس .

وينحو العلامة ابن كثير بهذا التمنى منحى آخر حيث يراه العـودة إلى الدنيا لا من أجل التشفى فى هؤلاء المتبوعين وإنما لتوحيد الله - عـز وجـل - وإخلاص العبادة له ، فيقول :

"أى لو أن لنا عودة إلى الدار الدنيا حتى نتبرأ من هؤلاء ومن عبادتهم ، فلا نلتفت إليهم ، بل نوحد الله وحده بالعبادة ، وهم كاذبون فى هـذا ، بـل لوردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ، كما أخبر الله تعالى عنهم بذلك [1] .

وسواء كان تمنى الرجوع إلى الدنيا للانتقام من الرؤساء - كمـا هـو الرأى الأول - أو لإخلاص العبادة لله - عز وجل - كما ذهب إليه ابن كثـير - فهو فى عداد المقطوع بعدم حصوله ، ومن هنا كان التمنى بلو التى تزيد المتمـنى بعدا ، إذ إنها بحسب أصلها تدل على الامتناع .

* * *

(١٩) ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .. (الشعراء : ١٠٢)

هذه آية كريمة ضمن سياق قرآنى محكم يطلعنا على صورة من تخـاصم أهل النار الذى قطع القرآن الكريم بحقيته : حيث يتلقى الأذناب تبعة انصرافهم عن الحق على رؤسائهم الذين أضلوهم عن سواء السبيل ، وهم حين يجـدون أنفسهم أمام هلاك محقق مفتقدين شفعاء يخلصونـهم ، أو صديقا يتوجع لحـالهم

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ١ / ٢٠٩ .

لا يبقى أمامهم سوى تمنى اليائس رجعة إلى الدنيا ليدركوا ما فاتهم من الإيمـــان حتى ينجوا - على زعمهم - مع أنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون .

ويلحظ أن أسلوب التمنى شمل الآية الكريمة كلها ، فأداته "لو" بمالها من خصوصية فى إبراز المتمنى - وهو رجعة إلى الدنيا - فى صورة مـــا لم يوجـــد - فالكلام عن متمنى ممتنع لا سبيل إلى تحقيقه أبدا قال صاحب الكشاف : (ولو فى مثل هذا الموضع فى معنى التمنى ، كأنه قيل : فليت لنا كرة ، وذلك لما بين لـــو ليت من التلاقى فى التقدير) [1] أى فى مطلق التمنى .

والأذناب الذين غُرَر بهم يتمنون أن يكون لهم نوع رجعة إلى الدنيـــا ، لا يحددون لها أمدا ، ولا يختارون لها وصفا ، وإنما يكتفون بها رجعـــة مفـــردة مجردة من أى وصف فوق كونها رجعة .

وجواب التمنى وارد فى قوله - تعالى - " فنكون من المؤمنـــين" : إنهـــم يودون أن يمنحوا رجعة إلى الدنيا ليصلحوا ما أفسدوه من العقيدة وما بنى عليها من سلوك خاطئ ، وهم لم يكتفوا بأن يقولوا : لو أن لنا كرة فنؤمن ، وإنما جاء فى جواب التمنى " فنكون من المؤمنين" بهذه الصياغة التى تفيـــد رســـوخهم فى الإيمان ، وأنهم سيكونون من الذين صار الإيمان وصفا لازما لهم .

قال الإمام البقاعى : (فنكون من المؤمنين) أى الذين صار الإيمان وصفـا لازما فأزلفت لهم الجنة) [2] .

---

(1) الكشاف : ٣/١٢٠ .

(2) نظم الدرر : ١٤/٦٠ .

وللعلامة ابن عاشور توجيه لطيف لـ "لو" فى مثل هذا الموضع حيث يقرر أنها فى الأصل "لو" الشرطية ، لكنها تنوسى منها معنى الشرط : لو أرجعنا إلى الدنيا لآمنا ، لكنه إذا لم يقصد تعليق الامتناع على امتناع تمحضت لو للتمنى لما بين الشئ الممتنع وبين كونه متمنى من المناسبة [1] .

وأحسب أن هذا يعنى أن جواب التمنى لم يعد جوابا لشرط سبق ، لأن معنى الشرط قد تنوسى ، ولأنه لم يقصد تعليق امتناع الجواب على امتناع الشرط ، وإنما يصير جوابا للو - بمعنى التمنى - كما تحتاج ليت إلى جواب .

وتخلص "لو" للتمنى لما بين الشئ الممتنع وبين كونه متمنى من المناسبة القوية : فالممتنع مقطوع بعدم وقوعه ، والسبيل الوحيد لتعلق النفوس به التمنى ، إذ إنه المختص بما لا يرجى حصوله فهما من واد واحد ومن هنا كانت المناسبة .

وهكذا أطلقها هؤلاء الأذناب عبارة يائسة - فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين - لا تدفع أذى ولا تشفى غليلا ، ولا تحقق أملا ، وإنما تنحصر فى دائرة المحال ، وليس أقسى على النفس البشرية من التعلق بتحقيق شئ تعلم سلفا أنها لن يسمع لها فيه ، وأن توقع حصوله ضرب من الخيال .

* * *

---

(٢٠) ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الزمر : ٥٨)

ورد هذا الشاهد فى سياق قرآنى كريم ، دعى فيه المسرفون على أنفسهم للرجوع إلى ربهم والإسلام له واتباع منهجه المنزل حتى لا تتحسر نفس مذنبة - حين تواجه بمصيرها المشئوم وهى على جرمها - على تفريطها فى حق الله - جل جلاله - أو تتعلل بفقد الهداية ، أو تتمنى الرجعة إلى الدنيا .

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير : ١٥٦/١٩ .

ولكنها ذرائع واهية مردود عليها بالحجة الدامغة ، فقد أنزل الله تعالى آياته بينات فجحد المقصرون بها ، واستكبروا عن قبولها ، وكانوا من الثابتين على كفرهم ، فليتبوءا مقاعدهم من النار ! .

والتمنى الوارد فى الآية الكريمة ـ لو أن لى كرة فأكون من المحسنين ـ حلقة سلسلة من التخبط الذى وقع فيه المقصرون حيث أتوا بثلاثة أشياء : (أولها الحسرة على التفريط فى الطاعة . ثانيها التعلل بفقد الهداية . ثالثها تمنى الرجعة) [1] .

ويلحظ أن التمنى قد ورد آخر هذه الأشياء الثلاثة ويشير العلامة ابن عاشور إلى أن هذا الترتيب غاية فى الإحكام فيقول : (وقد حكى كلام النفس فى ذلك الموقف على ترتيبه الطبيعى فى جولانه فى الخاطر بالابتداء بالتحسر على ما أوقعت فيه نفسها ، ثم بالاعتذار والتنصل طمعا أن ينجيها ذلك ، ثم بتمنى أن تعود إلى الدنيا لتعمل الإحسان ، كقوله تعالى : قال رب ارجعون ـ لعلى أعمل صالحا فيما تركت [2] . فهذا الترتيب فى النظم هو أحكم ترتيب ، ولو رتب الكلام على خلافه لفاتت الإشارة إلى تولد هذه المعانى فى الخاطر حينما يأتيهم العذاب [3] .

وحين نأتى إلى أحوال نظم الآية الكريمة نلحظ أن التمنى أفيد معناه بلو ، وهى تشعر من الوهلة الأولى ـ بحكم وضعها اللغوى ـ أن المتمنى وهو رجعة إلى الدنيا ممتنع ، كما أنها أكثر دلالة على بعد المتمنى من ليت كما سبق بيانه فى الشواهد السابقة .

---

(1) مفاتيح الغيب : ٤٦١/٢٦ .

(2) سورة المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠ .

(3) التحرير والتنوير : ٤٧/٢٤ .

وكأن هذه النفس المذنبة ـ وقد استولت عليها الحيرة لما رأت العذاب ـ تحسرت على مصيرها ، ثم حاولت التنصل من جرمها ، ولم يعد لها سـوى أن ترسلها أمنية يائسة تعلم أنها لا تغنى عنها شيئا ، ولن تفيد غير الخسران .

وانظر إلى تنكير "كرة" وما أفاده من أن النفس المذنبة تتمناها مجرد كرة بأية كيفية يقضى الله تعالى بها ، وفى أى أمد زمنى يقدره لها ، المـهم أن تكـون هناك رجعة وكفى ، وهل يتأتى ممن أتى ربه مجرما أن يقترح ؟!

وقول النفس المذنبة : "فأكون من المحسنين" وهو ما يسـميه أهـل العلم جواب التمنى ليس جوابا لشرط سبق لأنه لم يقصد تعليق امتناع الجـواب على امتناع الشرط ، فلو هنا خالصة للتمنى .

وانظر إلى ما ورد عليه الجواب ـ فأكون من المحسنين ـ دون أن يقـل : فأحسن وما يدل عليه من ادعاء هذه النفس المذنبة رسوخا فى الإحسان ، وأنهـا ستكون من الذين صار الإحسان وصفا لازما لهم لوردت إلى الدنيـا ، وغـير خاف أن هذه أمنية لن تنال ، إذ قضى الله عز وجل أنه إذا انتهت الحياة فـلا كرة ولا رجعة ، ويبقى أن يعلم الناس أن اليوم عمـل ولا حسـاب ، وغـدا حساب ولا عمل ، والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت .

ولنا أن نقف عند الفروق بين ختم آية الزمر بقوله : " فـأكون مـن المحسنين " ، وختم آية الأنعام بقوله : " ..... ونكون من المؤمنـين " وآيـة الشعراء بقوله : " ..... فنكون من المؤمنين " ، وأحسب أن القاسم المشترك بين الآيات الثلاث تمنى العودة إلى الدنيا لاتخاذ الإيمان عقيدة بدل الكفر : فـالذين حقت عليهم كلمة العذاب لما أوقفوا على النار يعانون أهوالها صدرت عنـهم صيحة تمنى الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا .

وتنفرد آية الزمر بتجاوز النفس المتحسرة العزم على مجرد الإيمـــان فى حال رجعتها للدنيا إلى أمرين آخرين : أحدهما : اعتراف هذه النفس بعلمـها أنها كانت من المسيئين بعدم الإيمان فى الدنيا ، ولذا فهى تتمنى العـــودة إليـها لتعمل الإحسان .

والثانى : عزم على عدم الاكتفاء بمجرد الاكتفاء بمجرد الإيمان ، بـل تجاوزه إلى الإحسان والرسوخ فيه ليكون ذلك مرشحا قويا - على حـد ظـن المتمنى - لإجابته إلى طلب الرجعة المتمناة .

* * *

(٢١) ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَـوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة : ٩٦)

سبق الحديث عن لو التى للتمنى مجازا ، والتى نحن بصددها الآن تعـرف بلو المصدرية ، وعلامة الأولى صحة وضع ليت موضعها ، وعلامة الثانية صحـة وضع أن موضعها ، وشرطها الوقوع بعد مفهم تمن . يقول العلامة المـرادى : (لو المصدرية . وعلامتها أن يصح فى موضعها أن ، كقوله تعالى : "يود أحدهـم لو يعمر" ولا تحتاج إلى جواب .. ولا تقع لو المصدرية إلا بعد مفهم تمن ، نحو : يود . وقل وقوعها بعد غير ذلك "[1] .

والآية الكريمة التى نحن بصدد تحليلها تكشف كون اليـهود أحـرص الناس على الحياة : كريمة كانت أو مهينة وأنهم قد بلغ بهم الحرص مبلغا تجـاوز المشركين الذين لا يرجون بعثا ولا نشورا ، ولذا يتمنى كل واحد منهم أن يعمر

(١) الجنى الدانى فى حروف المعانى : ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

فى الحياة إلى أقصى مدى مع أن تعميره - مهما طال - لن يبعده عما أعد له من عذاب الله العليم بأحوال الظالمين .

والمتمنى فى الآية الكريمة التعمير فى حياة بأى وصف كانت - والفعل المشعر بالتمنى "يود" وهو مأخوذ من الود : قال الشيخ الراغب : (الود محبة الشئ وتمنى كونه ، ويستعمل فى كل واحد من المعنين ، على أن التمنى يتضمن معنى الود لأن التمنى هو تشهى حصول ما توده [1] .

واحسب أن إسناد الفعل يود "إلى" أحدهم " دون أن يقال مثلا : يودُون للدلالة على أن الحرص على حياة صفة ملازمة لكل يهودى ، وأن ما يتمناه أحدهم من التعمير فى حياة ينطبق على سائرهم ، ولو قيل يودون لاحتمل المعنى أن يكون المقصود أغلبهم لا جميعهم .

وتعمير ألف سنة هل هو على حقيقته أم على سبيل الكناية ؟ احتمالان : يقول العلامة أبو حيان : "ومعنى ألف سنة العمر الطويل فى أبناء جنسه ، فيكون ألف سنة كناية عن الزمان الطويل ، ويحتمل أن يريد ألف سنة حقيقة وإن كان يعلم أنه لا يعيش ألف سنة لأن التمنى يقع على غير الجائز والمستحيل عادة أو عقلا ، فيكون هذا معناه أنهم لشدة حرصهم فى ازدياد الحياة يتعلق تمنيهم فى ذلك بما لا يمكن وقوعه عادة " [2] .

وجملة الحال " وما هو بمزحزحة من العذاب أن يعمر " أفادت أن ما يتمناه اليهودى من التعمير - مع كونه بعيد المنال لن يكون له أثر ما فى إزالة العذاب الذى حقت عليه كلمته على فرض إجابته إلى متمناه .

---

(1) المفردات فى غريب القرآن : ٨١١ .

(2) البحر المحيط : ٣١٥/١ .

يقول الإمام الرازى : (الزحزحة : التبعيد والإنجاء ، قال القـــاضى : والمراد أنه لا يؤثر فى إزالة العذاب اقل تأثير ، ولو قال تعالى : وما هو بمبعـــده وبمنجيه لم يدل على قلة التأثير كدلالة هذا القول) [1] .

وقوله تعالى : والله بصير بما يعلمون ((خـــبر مســـتعمل فى التـــهديد والتوبيخ ، لأن القدير إذا علم بما يجترحه الذى يعصيه ، وأعلمه بأنه علم منـــه ذلك علم أن العقاب نازل به لا محالة)) [2] . وفيه أيضا كناية عن المجازاة ، مـع ما فيه من تهديد .

* * *

(٢٢) (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكم مِن بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّـــاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ منْ بَعْدِ مَا تَبَينَ لَهُمُ الْحَقُ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَى يَـــأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِه إِنَ اللهَ عَلَى كُلَ شَيءٍ قَدِيرٌ) (البقرة : ١٠٩)

تتحدث الآية الكريمة عن تمنى كثير من اليهود رد المؤمنين من بعد إيمانهم كفارا - مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم - صلى الله عليه وســـلم - رغبـــة فى سلب الخير عنهم لما هدوا إلى صراط الحميد .

وفى هذا إعلام للمؤمنين بعداوتهم فى الباطن والظاهر ، ودعوة لهـــم إلى العفو والصفح حتى يأذن الله تعالى بمسلك آخر حيالهم ، فهو وحده القادر علـى التمكين منهم ، وهو على كل شئ قدير .

وتنص الآية الكريمة على أن الحسد للمؤمنين هو الدافع إلى مـــا تمنـــاه اليهود ، ويرى الإمام القشيرى أن هذا دأب كل حاسد فى كراهيته فضل الله - عز وجل - يؤتيه من يشاء من عباده ، وتمنيه ألا يسلم أحد ، وفى هذا المعنى يقـــول

---

(١) مفاتيح الغيب : ٣/٢٦٥ .

(٢) التحرير والتنوير : ١/٦١٩ .

رحمه الله تعالى : (من لحقه خسران الفهم من أصحاب الغفلة ود ألا يطلع لأحد بالسلامة نجم ، ومن اعتراه الحسد أراد ألا تنبسط على محسوده شمس) [1] .

وأسلوب التمنى وارد فى قوله تعالى : ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا فالفعل ود مفهم التمنى كما سبق بيانه فى الشاهد السابق [2] .

وإسناد الفعل "ود" إلى كثير من أهل الكتاب للإنباء بأن المصاف منهم للمؤمنين قليل ، وبشر سبحانه بأن ما يودونه من قسم المحال بسوقه سوق التمنى فقال : "لو يردونكم ، أى بأجمعكم" [3] .

((وإيراد الظرف ـ "من بعد إيمانكم" ـ مع عدم الحاجة إليه ضرورة كون المخاطبين مؤمنين ، واستحالة تحقق الرد إلى الكفر بدون سبق الإيمان مع توسيطه بين المفعولين لإظهار كمال شناعة ما أرادوه وغاية بعده من الوقوع إما لزيادة قبحه الصارف للعاقل عن مباشرته ، وإما لمانعة الإيمان له كأنه قيل : من بعد إيمانكم الراسخ . وفيه من تثبيت المؤمنين ما لا يخفى)) [4] .

ولما كان متمنى اليهود ـ وهو رد المسلمين من بعد إيمانهم كفارا ـ أمرا غاية فى القبح ، ينأى العاقل بنفسه عن انتكاسه ويمنعه إيمانه الراسخ من سقطته حَسُن التعبير عن هذا التمنى بلو التى تشعر بعزة المتمنى حيث ابرز فى صورة ما لم يوجد لأن لو يحسب أصلها حرف امتناع .

* * *

---

(1) لطائف الإشارات : ١١٣/١ .

(2) يراجع تحليل قوله تعالى "يود أحدهم لو يعمر ألف سنة" .

(3) ينظر : نظم الدرر : ١٠٤/١ .

(4) إرشاد العقل السليم : ١٤٦/١ .

(٢٣) (يَوْمَ تَجِدُ كُلُ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُ لَوْ أَنَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِرُكُم اللهُ نَفْسَه واللهُ رَءُوفٌ بْالْعِبَادِ) (آل عمران : ٣٠)

يحذر الله - عز وجل - الذين يخالفون عن أمره عاقبة يوم ينبأ فيه كل إنسان بما قدم وأخر ، فما كان من سلوكه خيرا أرضاه وأفرحه ، وما أريه من سوء أهمه وأحزنه ، وتمنى أن يبعد عنه بعدا سحيقا خوفا من الوقوع فى مغبته .

وأسلوب التمنى وارد فى هذا التركيب : "وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا" وسبق النكرة بمن فى حيز النفى دال على الاستغراق : بمعنى أن كل نفس مؤاخذة بما اقترفته من سوء أى سوء صغر أو كبر أو عظم - كما أنها فى مقابل ذلك مكافأة بما أقدمت عليه من خير أى خير ، وأن شيئا من الخير أو السوء لا يتخلف عند المكافأة أو المؤاخذة .

وقوله تعالى : تود (عامل فى الظرف ، والمعنى تود وتتمنى يوم تجد صحائف أعمالها من الخير والشر ، أو أجزيتها محضرة "لو أن بينها وبينه" أى بين ذلك اليوم" أمد بعيداً لغاية هوله " [١] .

ومحضراً "معتبر فى" "ما عملت من سوء" معنى ((إلا أنه خص بالذكر فى الخير للإشعار بكون الخير مرادا بالذات وكون إحضار الشر من مقتضيات الحكمة التشريعية)) [٢] .

والسؤال هنا : ما المتمنى : أهو البعد عن اليوم أم عن عمل السوء ؟ قولان - ووجهة القائلين بالثانى : عود الضمير فى قوله تعالى : "لو أن بينها

---

(١) إرشاد العقل السليم : ٢٤/٢ .

(٢) روح المعانى : ١٢٢/٣ .

وبينه" لما عملت لقربه ، ولأن اليوم فيه الخير والشر ، والمتمنى بعد الشر لا مـا فيه مطلقا ، فلا يحسن إرجاع الضمير لليوم .

ووجهة القائلين بالأول أن تمنى البعد عن اليوم يرجح غيره ، إذ إن تمـنى النفس المكلفة بعداً بينها وبين اليوم الآخر مع ما فيه من خير - لئلا ترى ما فيـه من سوء ، وهذا أفصح فى بلوغ هوله الغاية [1] .

وأحسب أن الرأى الثانى هو الراجح ، إذ إنه - سبحانه - قـد وعـد الذين أحسنوا بالعاقبة الحسنى وأمنهم من فزع المحشر - حيث لا يعرف أحـد عاقبة أمره- باستقبال الملائكة لهم مرحبين ومهنئين . وهل يتأتى من تتلقـاهم الملائكة مبشرين أن يتمنوا بعداً عن هذا اليوم الذى يرتفع فيه قدرهم ، ويتزلون منازلهم حتى صح أن يضاف إلى ضميرهم ، فكأنه مختص بهم ، ونفعـه عـائد عليهم وحدهم ؟! الأمر الذى يرجح أن البعد عن عمل السوء هو المتمنى .

(وفى إسناد الودادة إلى كل نفس سواء كان لها عمل سيئ أولا ، بـل كانت متمحضة فى الخير من الدلالة على كمال فظاعة ذلك اليوم وهول مطلعه ما لا يخفى . اللهم إنا نعوذ بك من ذلك [2] .

إنها مواجهة كل نفس بما قدمت وأخرت ، مواجهة تحـاصر القلـب البشرى برصيده من الخير والشر ، وتصور له حاله وهو يواجه هذا الرصيـد ، ويود - ولات حين مودة - لو أن بينه وبين السوء الذى عمله أمـدا بعيـدا ، أو أن بينه وبين هذا اليوم كله - مع ما فيه من خير - أمدا بعيدا ، بينما هـو فى مواجهته آخذ بخناقة ، ولات حين مناص [3] .

* * *

(1) روح المعانى : ١٢٢/٣ .

(2) إرشاد العقل السليم : ٢٤/٢ .

(3) ينظر : فى ظلال القرآن : ٣٨٦/١ .

(٢٤) (وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) (آل عمران : ٦٩) .

هذا بيان لكون اليهود غير مكتفين بعدو لهم عن الحق الذى أيقنوه من نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - وإعراضهم عن اتخاذ الإسلام دينا ، بل هم يتمنون إضلال المؤمنين وفتنتهم عن دينهم بإلقاء الشبهات التى توهن اعتقادهم (كقولهم : إن محمدا مقر بموسى وعيسى ويدعى النبوة) [١] .

وأسلوب التمنى وارد فى هذا التركيب "ود كثير من أهل الكتاب لو يضلونكم" والذى أفاد التمنى "ود" فناسب أن تستعمل معها لو : (قال أبو مسلم الأصبهانى ، ود بمعنى تمنى فتستعمل معها لو) [٢] .

وانظر إلى دقة التعبير القرآنى باستعمال "طائفة" دون جماعة أو فريق مثلا ، إذ إنها تدل على أن هذه الجماعة من اليهود من شأنها أن تطوف حول المؤمنين طواف التابع المحب مكرا وخداعا [٣] .

وأحسب أن نعت طائفة بقوله - سبحانه - "من أهل الكتاب" فيه بيان لعظم جرم اليهود إذ إنهم بموجب الكتاب الذى مُكنوا به وهو التوراة - كان حقهم تمثل أوامره التى من بينها دعوتهم إلى الإيمان بهذا النبى الأمى ، قال تعالى .. "ورحمتى وسعت كل شئ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ..) [٤] .

---

(١) مفاتيح الغيب : ٢٧٠/٧ .

(٢) البحر المحيط : ٤٨٨/٢ .

(٣) ينظر : نظم الدرر : ٤٥٥/٤ .

(٤) سورة الأعراف : ١٥٧ .

إن تمنى إضلال المؤمنين وصرفهم عن الحق الذى هدوا إليـــه ، يرتكـــز على شدة كراهية لهذه الأمة وعظيم كيد لها ، بلغ بأصحابه حداً مـــن المكـــر والخديعة ، ظاهره طواف المحب حول من أحبه والتابع حول متبوعـــه وباطنـــه تطويق المؤمنين وفتنتهم عن دينهم .

وقد كشفت عبارة التمنى القرآنى زيف هذا كله ، وأزالت القناع عنه ، وعرت وجه أصحابه القبيح ، وأبرزت الحقيقة جلية أمام المؤمنين حتى لا يغتروا بكلام هذه الطائفة من أهل الكتاب .

وورود الجملة الحالية ـ وما يضلون إلا أنفسهم " عقب عبارة التمـــنى للدلالة على كمال رسوخ المخاطبين وثباتهم على ما هم عليه من الدين القـويم ، أى وما يتخطاهم الإضلال ولا يعود وباله إلا إليهم لما أنه يضاعف عذابهم [1] .

ولعل فيما ذكر من دلالة جملة الحال ما يعين على فهم العدول عن ليت إلى لو فى إفادة التمنى ، حيث إن كمال ثبات المؤمنين على دينهم يبدد كل أمـل فى أن تقع منهم ردة عنه ومن هنا كان استعمال "لو" دون ليت ـ التى هـــى فى أصل وضعها للامتناع .

* * *

(٢٥) (يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَسُولَ لَوْ تُسَوَى بِهِم الأَرْضُ وَلاَ يَكْتَمُونَ اللهَ حَدِيثاً) (النساء : ٤٢)

هذا بعض من المواقف التى تقع يوم يقوم الأشهاد : حيث يـــرى فيـــه المعرضون عن الحق من الأهوال ما يفضى بهم إلى تمنى العدم تجنبـــا لافتضـــاح أمرهم ومؤاخذتهم بما يحملون من الأوزار على ظهورهم .

---

(1) ينظر : إرشاد العقل السليم : ٤٩١٢ .

والذى أفاد التمنى فى الآية قوله تعالى : "يود" ، قال صاحب البحر المحيط : (ومعنى يود : يتمنى) [1] والمتمنون إما المكذبون للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإما جنس الكفرة : قال صاحب روح المعانى : "والمراد بالموصول : إما المكذبون لرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتعبير عنهم بذلك لذمهم بما فى حيز الصلة والإشعار بعلة ما اعتراهم من الحال الفظيعة والأمر الهائل وإيراده ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعنوان الرسالة الشريفة وزيادة تقبيح حال مكذبيه ـ وإما جنس الكفرة ويدخل أولئك فى زمرتهم دخولا أوليا ، والمراد من الرسول الجنس أيضا ، ويزيد شرفه انتظامه للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ انتظاما أوليا) [2] .

والمتمنى : انشقاق الأرض وابتلاعها لهم مما يرون من أهوال المواقف وما يحل بهم من الخزى والفضيحة والتوبيخ . وقوله ـ تعالى ـ : ولا يكتمون الله حديثا " إخبار عنهم بأنهم يعترفون بجميع ما فعلوه ولا يكتمون منه شيئا [3] .

وهذا الإخبار السابق عنهم واضح فى كونهم سيعترفون بكل ما صدر عنهم دون أن يخفوا منه شيئا ، وقد ورد فى سورة الأنعام ما ظاهره الاختلاف مع هذا المعنى حيث ذكر القرآن الكريم على لسان المشركين "ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين" [4] . وفى الإجابة عنه يقول صاحب الغرائب (فإن قيل : كيف الجمع بين هذه الآية ـ من سورة الأنعام ـ وبين قوله تعالى : ولا يكتمون الله حديثا " ؟

---

(1) البحر المحيط : ٣/٢٥٢ .

(2) روح المعانى : ٥ / ٣٤ .

(3) ينظر : تفسير القرآن العظيم : ١ / ٥١١ .

(4) الأنعام : ٢٣ .

قلنا : القيامة مواقف مختلفة ، ففى بعضها لا يكتمـــون ، وفى بعضـــها يحلفون كاذبين ، كما قال عز وجل : فوربك لنسألنهم أجمعـــين عمـــا كـــانوا يعملون" ـ الحجر : ٩٢،٩٣ ـ وقال تعالى : "فيومئذ لا يسال عن ذنبه إنـــس ولا جان" ـ الرحمن : ٣٩ـ وقيل : إن حلفهم كاذبين يكـــون قبـــل شـــهادة جوارحهم عليهم .. ولا يكتمون الله حديثا " يكون بعد شهادتها عليهم [1] .

وغير خاف أن ما تمناه الذين كفروا وعصوا الرسول لما كان موغـــلا فى الاستحالة وامتناع التحقق أورده القرآن الكريم بلفظ الود ـ وهـــو التمـــنى ـ وأعقبه بلو التى وإن كانت بمعنى أن فى هذا الموضع فإن وضعها الأصلى الامتناع ، فتكون لو بحسب هذا الأصل وسبقها بما أفهم تمنيا قد تآزرا فى الدلالة المحكمـــة على عدم تحقق هذا المتمنى واستحالة وقوعه .

* * *

(٢٦) (وَدُوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلاَ تَتَخِذُوا مِنْـهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَى يُهَاجِرُوا فِى سَبِيلِ الله فَإِنْ تَوَلَـــوا فَخُذُوهُـــمْ وَاقْتُلُوهُـــمْ حَيْـــثُ وَجَدتُمُوهُمْ وَلاَ تَتِخِذُوا مِنْهُم وَلِياً وَلاَ نَصِيراً) (النساء : ٨٩)

لما أخبرت ـ الآية ـ قبل موضع الشاهد ـ بضلال المنافقين وثباتهم عليه ، أعقبه الإعلام بعراقتهم فى هذا الضلال ، حيث إن المؤمنـــين يريـــدون هدايـــة المنافقين ، وهم يتمنون تساويهم فى الكفر معهم ، وهيهات أن يكون لمتمنـــاهم تحقيق ! وأسلوب التمنى يتضمنه قوله سبحانه : "ودوا لو تكفرون كما كفـــروا فتكونون سواء ، والفعل "ودوا" هو الذى أفاد معنى التمنى : قال الإمام البقاعى : "ودوا : أى أحبوا وتمنوا تمنيا واسعا" [2] .

---

(١) من غرائب أى التنـــزيل : ٢ / ١١٦ .

(٢) نظم الدرر : ٥/٣٥٥ .

و "لو" فى قوله سبحانه : "لو تكفرون" مصدرية بمعـــنى أن : أى ودوا كفركم : يقول العلامة الألوسى : "ولو مصدرية لا جواب لها : أى تمنـــوا أن تكفروا . وقوله "كما كفروا" نعت لمصدر محذوف ، وما مصدرية أى كفرا مثل كفرهم ..... وقوله تعالى : "فتكونون سواء" عطف على "لو تكفرون" داخـــل معه فى حكم التمنى : أى ودوا لو تكفـــرون فتكونـــون مســـتوين فى الكفـــر والضلال) [1] .

وسبب تمنيهم هذا أحد أمرين : أولهما الحسد لما ظهر مـــن علـــو الإسلام والآخر إيثارهم أن يكونوا عباد أصنام لكونهم يرون المؤمنين على غـــير شئ . وهذا كشف من الله تعالى لخبيث معتقدهم ، وتحذير للمؤمنين منهم [2] .

وأرجح الحسد سبباً لهذا التمنى ، حيث نص عليه فى نظير هذه الآيـــة ، قال تعالى : "ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم .." الآية [3] ولكون المنافقين - وهم أصحاب مراوغة - يعرفون صدق رسالة الإسلام كمعرفتهم أبناءهم ، لكنهم جحدوا بها بعد أن اســـتيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا .

وللعلامة ابن عاشور "لفتة لطيفة إلى بلاغة التعبير القرآنى بـــالإرادة فى جانب محاولة المؤمنين هداية المنافقين ، وبالود - الذى معناه التمنى - فى جـــانب محاولة المنافقين تكفير المؤمنين ، ويعلل بلاغة كل فى موقعه فيقول : (لأن الإرادة ينشأ عنها الفعل ، فالمؤمنون يستقربون حصول الإيمان مـــن فطـــرة النـــاس ،

---

(1) روح المعانى : ١٠٥/٥ .

(2) ينظر : البحر المحيط : ٣١٤/٣ .

(3) البقرة : ١٠٩ .

والمنافقون يعلمون أن المؤمنين لا يرتدون عن دينهم ، ويرون منهم محبتهم إياه ، فلم يكن طلبهم تكفير المؤمنين إلا تمنيا فعبر عنه بالود المجرد) [1] .

وهكذا طابقت هذه الصياغة القرآنية حال المنافقين المتمنين كفر المؤمنين ، فعلمهم بثباتهم على دينهم ومحبتهم له جعل عبارتهم فى تمنى كفر المؤمنين مفرداتها : الود - بمعنى التمنى - و"لو" التى وإن كانت مصدرية فلا يزال لها ظل من وضعها اللغوى وهو الامتناع - وكأن المعنى - والله أعلم - تمنى المنافقون شيئا ممتنعا وهو كفركم حتى تستووا فى الضلال ، وهذا لن يكون أبدا بدليل هذه الصياغة الموغلة فى استحالة وقوع المتمنى .

وعليه فإن المؤمنين مدعوون - بعد أن كشف الله لهم خبث معتقد المنافقين - ألا يتخذوا منهم نصراء لهم حتى يخرجوا مجاهدين فى سبيل الله ، فتزول عنهم صفة النفاق ، فإن تمادوا فى غيهم وأعرضوا عن دعوة الحق وجب قتالهم وحَرُم اتخاذ النصراء منهم .

* * *

(٢٧) (وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُم الصَلاَةَ فَلْتَقُمْ طائفة مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُم فإذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن ورَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُوا فَلْيُصَلُوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَ الذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذَى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُم مَرضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُم وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَ اللهَ أَعَدَ لِلكافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً) (النساء : ١٠٢)

(١) التحرير والتنوير : ١٥١/٥ .

وردت الآية الكريمة فى سياق قرآنى يقرر أن الصلاة المكتوبة أمـــر لازم فى كل حال ، وأنها لا تسقط فى جهاد أو هجرة أو سفر .

ولما كان من المتعذر إقامة الصلاة فى بعض الأحوال كالحرب والســـفر شرع القصر فيها ، وصورت كيفيتها ، مع أهمية أن يـــأخذوا حذرهـــم مـــن الكافرين ، إذ إنـــهم يتمنون أن ينالوا من المؤمنين غفلة فيأخذوهم على حـــين غرة ، ويحملوا عليهم حملة واحدة .

وتركيب التمنى : ود الذين كفروا لو تغفـــلون عـــن أســـلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة "والود معناه التمنى ، ولـــو مصدريـــة : يقول الإمام البقاعى : ود : أى تمنى تمنيا عظيما . الذين كفـــروا أى باشـــروا الكفر وقتا ما فكيف بمن هو غريق ؟ "لو تغفلون" أى تقع لكم غفلة فى وقت ما " عن أسلحتكم [1] .

ولما كان المؤمنون فى صلاتهم خلف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مهتدين بـــما وصاهم به ربـــهم من ضرورة الحيطة والحذر تجاه عدوهم حـــتى وهم خاشعون فى صلاتهم الأمر الذى يجعل وقوع الغفلة مـــن جانبـــهم أمـــرا يستحيل وقوعه ويمتنع تحققه - لذا كان التعبير عن تمنى الغفلة بالود الذى هـــو التمنى العظيم الذى غلب على مشاعرهم فضؤل بجانبه كل تمن آخر حتى يكـــاد أن يكون التمنى الأعظم فى حياتهم .

ولا يغفل دور "لو" - بما لها من ظل الامتناع بحسب وضعها اللغـــوى - مع كونها فى التركيب مصدرية . وانظر إلى قولنا فى غير القـــرآن ، ود الذيـــن كفروا أن تغفلوا عن أسلحتكم وأمتعتكم .. فهل ترى بابا موصدا أمام تحقيق ما

---

(1) نظم الدرر : ٥ / ٣٨٣ .

تمناه الذين كفروا من غفلة المؤمنين كما أحكمته "لو" الـــتى هـــى فى أصلها حرف امتناع ؟

وقوله تعالى : "فيميلون" (مفرع عن قوله "لو تغفلون" إلخ ، وهو محـــل الود ، أى ودوا غفلتكم ليميلوا عليكم . والميل : العدول عـــن الوســـط إلى الطرف ، ويطلق على العدول عن شئ كان معه إلى شئ آخر كمـــا هنـــا أى فيعدلون عن معسكرهم إلى جيشكم .

ولما كان المقصود من الميل هنا الكر والشد عُدّى بـــــ علـــى : أى فيشدون عليكم فى حال غفلتكم . وانتصب "مَيْلة" على المفعولية المطلقة لبيـــان العدد ، أى شدة مفردة ، واستعلمت صيغة المرة هنا كناية عن القوة والشـــدة ، وذلك أن الفعل الشديد القوى يأتى بالغرض منه سريعاً دون معاودة علاج فـــلا يتكرر الفعل لتحليل الغرض ، وأكّد معنى المرة المستفاد من صيغة فعلة بقولـــه "واحدة" تنبيها على قصد معنى الكناية لئلا يتوهم أن المصدر لمجرد التأكيد لقوله "فيميلون" [1] .

وهكذا يلمح فى تركيب التمنى - ود الذين كفروا لو تغفلـــون عـــن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة أمران أساسيان :

أحدهما : تعليم المؤمنين التأهب لكل أمر يقومون عليه ، وألا يغفلـــوا الأسباب التى يجب الأخذ بها . والثانى : إبراز جهل الذين كفروا بحقيقة هـــذا الدين ، إذ تمنوا أن تلهى الصلاة المؤمنين عن التهيؤ لأعدائـــهم معتقديـــن أن الاشتغال بأمور الدين يباعدهم بينهم وبين مصالح الدنيا مع أنهمـــا فى الإســـلام صنوان .

* * *

(1) التحرير والتنوير : ١٨٧/٥ .

(٢٨) (رُبَما يَوَد الَذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ) (الحجر : ٢)

تقرر الآية الكريمة أن الذين كفروا بآيات الكتاب المعجز ، وكذبوا بهذا القرآن المبين ، كلما رأوا حالا من أحوال العذاب ، ورأوا حالا من أحوال المسلمين يتمنون إسلاما راسخا فى الدنيا ودينا خالصا لله عز وجل .

فالتمنى إذاً كونهم مسلمين راسخين والذى أفاد معناه الود وما أعقبه من الآية :

يقول الإمام البقاعى : والود : التمنى ، وهو تقدير المعنى فى النفس للاستمتاع وإظهار ميل الطباع إليه ، وفيه اشتراك بين التمنى والحب - قاله الرمانى - وهو هنا للتمنى ، فإنه بين مودودهم بقوله : لو كانوا "كونا جبليا" مسلمين أى عريقين فى وصف الإسلام من أول أمرهم إلى آخره [1] .

والسؤال هنا : إذا كان تمنى الذين كفروا الإسلام غير مشكوك فيه فلم سبق برب التى تفيد القليل ؟ وفى الجواب عنه يقول صاحب الكشاف : (هو وارد على مذهب العرب فى قولهم : لعلك ستندم على فعلك ، وربما ندم الإنسان على ما فعل ، ولا يشكون فى تندمه ولا يقصدون تقليله ، ولكنهم أرادوا : لو كان الندم مشكوكا فيه وكان قليلا لَحَقَّ عليك ألا تفعل لأن العقلاء يتحرزون من التعرض للغم المظنون كما يتحرزون من المتيقن ومن القليل منه كما من الكثير . وكذلك المعنى فى الآية : لو كانوا يودون الإسلام مرة واحدة فبالأحرى أن يسارعوا إليه ، فكيف وهم يودونه فى كل ساعة .. وقيل : تدهشهم أهوال ذلك اليوم فيبقون مبهوتين ، فإن حانت منهم إفاقة فى بعض الأوقات من سكراتهم تمنوا ، فلذلك قلل) [2] .

---

(١) نظم الدرر : ١١/١١ .

(٢) الكشاف : ٣٠٩/٢ ، ٣١٠ .

وأرجح التوجيه الأول فى المجئ بصيغة التقليل مستندا إلى مـــا ذكـــره العلامة أبو السعود حيث قال : ((والمقصود من سلوك هذه الطريقـــة إظـــهار الترفع والاستغناء عن التصريح بالغرض بناء على ادعاء ظهوره ، فـــالمعنى لـــو كانوا يودون الإسلام مرة واحدة لوجب عليهم أن لا يفارقوه ، فكيف وهـــم يودونه كل آن ؟! وهذا أوفق بمقام استنـــزالهم عما هم عليه من الكفر)) [1] .

والودادة واقعة من الكافرين كلما رأوا حالا من أحوال المســـلمين فى الدنيا ـ كحلول النصر مثلا ـ وعند حلول الموت بأن يكشف لهم وخامة الكفر فيعلموا منه حال أهل الإسلام حتى كأنها مشاهدة لهم ، وعند خـــروج عصـــاة المسلمين من النار ، وكذا عند كل حال من أحوال العذاب يوم القيامة [2] .

ومجئ الودادة بصيغة المضارع مع كون "رب" المكفوفة بما عـــن الجـــر لا تدخل إلا على الماضى يقول فيه العلامة الجمل : "والمسوغ لذلـــك أن هـــذا المضارع بمنـــزلة الماضى فى تحقق الوقوع من حيث إنه من أخبـــار الله ، وهـــى صدق لا تتخلف" [3] .

وهكذا يبقى هذا المتمنى حبيسا فى نفوس أصحابـــه لا يتجاوزهـــا إلى الواقع ، وقد اضطلع بإبراز استحالة وقوعه وانعدام الأمل فى نفـــوس المتمنـــين أمران :

أحدهما : الودادة التى تبقى مجرد ميل نفسى إلى الكون على الإســـلام حيث لا ينفع التمنى ولا تجدى الودادة .

---

(1) إرشاد العقل السليم : ٥/٦٤ .

(2) ينظر : حاشية الشهاب على البيضاوى : ٥/٢٨١ .

(3) الفتوحات الإلهية : ٣/١٨٧ .

والثانى : "لو" التى وإن كانت مصدرية فإن لها نصيباً من دلالتها الوضعية على الامتناع ، والمصدر معنى عارض فى الكلام .

وانظر إلى قولنا فى غير القرآن : ربما يود الذين كفروا أن كانوا مسلمين ، فهل كنت ستجد فيه هذه الدلالة القاطعة على امتناع تحقيق كونهم مسلمين واستحالة وقوع ذلك ؟!

* * *

(٢٩) ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الأحزاب : ٢٠)

تتحدث الآية الكريمة عن المنافقين الذين بلغ بهم الجبن حدا جعلهم يظنون أن أعداء لله المتحزبين ضد الإسلام الذين هزمهم الله - عز وجل - وقد رحلوا عن الخندق يظنونهم لم يهزموا ولم يرحلوا ، وعلى فرض عودة الأحزاب مرة ثانية يتمنون أن لو كانوا من أعراب البادية ، لا يربطهم بأهل المدينة رابط ، ولو ظل هؤلاء والتحم الجيشان ما قاتلوا معهم إلا قليلا رياء وسمعة وخوفا من التعيير .

والتمنى فى الآية مستفاد من قوله تعالى : "وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم" . وبتأمل أحوال الصياغة فى هذا الأسلوب يلحظ التعبير عن حال المنافقين لو وقع ما يتخوفونه من رجوع الأحزاب بأداة الشك "إن" بشارة لأهل البصائر من المؤمنين أن رجوع الأحزاب بعد أن ردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً من المحال [1] .

---

(1) ينظر : نظم الدرر : ١٥/٣٢١ .

والودادة هنا : تمنى كونهم من أعراب البادية لو عاد الأحزاب كـــرة ثانية ، وهو تمن تمتلئ به نفوسهم دون أن يفصحوا عنه ، وإلا لافتضح أمرهـم ، وكشف القناع عنهم ، ولذا كان التعبير عنه بالغيبة نظرا للإخبار عنهم ، ولـــو نظر لصدوره منهم لقيل : لو أنا بادون فى الأعراب .

وكون المنافقين من أعراب البادية لو رجع الأحزاب أمـــر يســتحيل وقوعه ، لأن واقعهم سيكون على غير ما يتمنون ولذا كان التعبير عنه بلو الـتى رغم كونها فى الآية مصدرية ، فإنها منظور إلى دلالتها الوضعية على الامتناع .

وانظر إلى قولنا فى غير القرآن : وإن يأت الأحزاب يودوا بُدُوَهـــم فى الأعراب ، وتأمل ما عليه النظم الكريم من جعل تمنى المنافقين البدو مع الأعراب فى باديتهم أمراً ممتنعاً بما للو من دلالة على الامتناع فى أصل وضعها اللغوى .

والتعبير فى تركيب التمنى بقوله سبحانه "بادون فى الأعراب" لضمـــان السلامة من القتال التى فى سبيلها يتحملون كل شاق على نفوسهم حتى ولـــو كان الإقامة فى البادية مع الأعراب (الذين هم عندهم فى محل النقص ، ومـــن تكره مخالطته [1] .

والجملة الحالية "يسألون عن أنبائكم" وثيقة الصلة بالمتمنى ، إذ إنهم لـن يكتفوا بتمنى الانفصال التام من المدينة وساكنيها من المسلمين ، بل ســيقعدون لهم كل مرصد ويتتبعون أحوالهم ويسألون عن أنبائهم (لقصد التجسس علـــى المسلمين للمشركين ، وليسرهم ما عسى أن يلحق المسلمين من الهزيمة) [2] .

---

(1) نظم الدرر : ٣٢٢/١٥ .

(2) التحرير والتنوير : ٣٠١/٢٢ .

فكأن المنافقين بودادهم الإقامة فى البادية - لـــو رجـــع الأحـــزاب - يحرصون على سلامة أنفسهم وبسؤالهم عن أنباء المسلمين يتربصون بهم الدوائر ، ويتصيدون آية نازلة للشماتة بهم . وهيهات أن يكون لهم شئ من ذلك !

* * *

(٣٠) (إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْـــدَاءً وَيَبْسُـــطُوا إِلَيْكُـــمْ أَيديـــهم وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ) (الممتحنة : ٢)

لما نهى الله - تعالى - المؤمنين عن موالاة الكفار بإلقاء المـــودة إليـــهم ، وذكر ما صنعوا بهم أولا من إخراج الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين من ديارهم بمكة ، أعقبه بصنيع آخر لو تمكنوا منه بإظهار العداوة الكامنة لهـم ، وبسط أيديهم بالقتل والتعذيب والألسنة بالسب ، وأخطر من هذا كله تمـــنى ارتدادهم عن الإسلام الذى أحب الأشياء إليهم [1] .

وهذا يقطع بعدم جدوى التقرب إليهم ، وتسريب أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم كما وقع من حاطب بن أبى بلتعة [2] .

ويلحظ أن أسلوب التمنى - "وودوا لو تكفرون" - جاء نهاية لتدريـــج الكافرين فى إيذاء المؤمنين : حيث أبرز صدر الآية الكريمة أن ظفـــر الكـــافرين بالمؤمنين وتمكنهم منهم يترتب عليه من مضار الدنيا إظهار العداوة لهم بشـــكل سافر ، وقتل الأنفس وتمزيق الأعراض ، وتضمن ختام الآية - الذى هو التمنى - ما هو أشد وأخطر - لتعلقه بالعقيدة - وهو تمنى ارتداد المؤمنين عن دينهم .

---

(١) ينظر : البحر المحيط : ٦/٢٥٣ .

(٢) راجع إن شئت هذه الواقعة فى تفسير القرآن العظيم : ٤/٢٦٩.

وفى مزية عطف "ودُوا" الذى أفهم التمنى - وهو بلفظ الماضى على ما تقدمه وهو مضارع يقول العلامة النيسابورى : "قال علماء المعانى : إنما عطف قوله : وودوا" - وهو ماض لفظا - على ما تقدمه - وهو مضارع - تنبيها على أن ودادهم كفرهم أسبق شئ عندهم لعلمهم أن الدين أعزُ على المؤمنين من الأرواح والأموال . وأهم شئ عند العدو أن يقصد أعز شئ عند صاحبه " [1] .

(ولو هنا مصدرية ، ففعل تكفرون "مؤول بمصدر ، أى ودوا كفركم) [2] .

وهكذا تبرز الآية الكريمة العداوة الواضحة من قبل الذين كفروا للمؤمنين ، وأنهم لو تمكنوا منهم سيتزلون بهم من مضار الدنيا قتلا وسبا ، ويضطلع أسلوب التمنى بإظهار بلوغ الكافرين ذروة الإيذاء بتمنيهم ارتداد المؤمنين عن دينهم الذى هو أعز شئ عليهم . فعلى المؤمنين أن يخلصوا إلى نتيجة مؤداها : أنه لم ينفعهم التقرب من الذين كفروا بنقل أخبار الرسول - صلى الله عليه وسلم - كما وقع من حاطب بن أبي بلتعة ، وما داموا قد تيقنوا من هذه الحقيقة فعليهم ألا يتخذوهم أنصارا يفضون إليهم بالمحبة الخالصة .

* * *

(٣١) (فَلاَ تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ . وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ) (القلم : ٩،١٠)

لما ذكر الله - تعالى - ما عليه كفار قريش فى أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - ورميه بالجنون مع كل ما أنعم الله به عليه من الكمال فى الدين والخلق - أعقبه بما يدعوه إلى التشدد مع قومه ، والمداومة على مخالفتهم فى الدعوة إلى اتباع دين آبائه ، وقوى قلبه بذلك مع قلة المسلمين وكثرة المكذبين .

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان على هامش جامع البيان : ٢٨/٥٠ .

(٢) التحرير والتنوير : ٢٨/١٤٠ .

وفى هذا إلهاب من الله - عز وجل - وتهييج للتشدد فى مخالفتهم [1].

وعبارة التمنى : "ودوا لو تدهن فيدهنون" تعليل للنهى عن مداهنة المكذبين ومداراتهم بإظهار خلاف ما فى ضميره - صلى الله عليه وسلم - استجلابا لقلوبهم [2].

ونقل صاحب "الفتوحات الإلهية عن العلامة "الخازن" فى معنى الإدهان قوله (أصل الإدهان : اللين والمصانعة والمقاربة فى الكلام ، وقيل أدهن الرجل فى دينه ، وداهن فى أمره : إذا خان وأظهر خلاف ما أبطن . ومعنى الآية : أنهم تمنوا لو تترك بعض ما أنت عليه مما لا يرضونه مصانعة لهم فيفعلوا مثل ذلك ويتركوا بعض ما ترضى به فتلين لهم ويلينون لك ، وقيل : معناه ودوا لو تكفر فيكفرون ، وهو أن تعبد آلهتهم مدة ويعبدوا الله مدة) [3].

فالودادة - التى تعنى أنهم أحبوا محبة عظيمة - أفادت معنى التمنى - ولو مصدرية : أى ودوا إدهانك فيدهنون .

وقوله تعالى : "فيدهنون" معطوف على "تدهن" فهو فى حيز لو ، فهو من المتمنى [4] وعليه يكون المتمنى شيئين ثانيهما متسبب عن الأول : فالمتمنى الأول اللين من جانب النبى - صلى الله عليه وسلم - والمتمنى الثانى مترتب على الأول وهو لين المكذبين ومصانعتهم طمعا فى تجاوبه - صلى الله عليه وسلم - معهم .

---

(1) ينظر : مفاتيح الغيب : ٦٥٣/٣٠ .

(2) ينظر : روح المعانى : ٣٠/٢٩ .

(3) الفتوحات الإلهية : ٧٥/٤ .

(4) المصدر السابق .

وللعلامة ابن عاشور لطيفة فى موقع فاء "فيدهنون" حيث يقول : "وقد يفيد موقع الفاء تعليلا لودهم منه أن يدهن ، أى ودوا ذلك منك لأنهم مدهنون ، وصاحب النية السيئة يود أن يكون الناس مثله [1] .

وهيهات هيهات أن يتحقق ما تمناه المكذبون ، فقد كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حاسما فى أمر دينه لا يدهن فيه ولا يلين ، وهو فيما عداه كان أحسن الناس خلقا وألينهم جانبا ، وأجملهم صحبة ، وأحرصهم على التيسير والتبشير ، فأما الدين فهو ملتزم فيه بحدود مولاه ، آخذ بتوجيه ربه : "فلا تطع المكذبين" لا يتزحزح عنه قيد أنملة .

* * *

---

(٣٢) ﴿يَوْمَ تكونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ . وَتَكُونُ الجبالُ كَالْعِهْنِ . وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيم حَمِيماً . يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيه وَصَاحِبَتِه وَأَخِيه . وَفَصِيلَتِه الَّتِى تُؤْوِيه . وَمَنْ فِى الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ (المعارج : ٨-١٤)

لما تناهى الإخبار بعظمة اليوم الآخر وهول ما يقع فيه إلى حد لا تحتمله القلوب : حيث تكون السماء كالمعدن المذاب ، وتكون الجبال كالصوف الواهن ، ولا يسأل قريب قريبه عن حاله مع التيقن منه ، لانشغال كل واحد بهمه – رتب عليه بيان حال المجرم الذى أُخِذ حِسُه وَرُعِبَتْ نفسه من هول ما يشاهد ، فقيل : يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه " ...... الآيات .

وأسلوب التمنى يتضمنه قوله تعالى : "يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه " إلى قوله –جل شأنه– ثم ينجيه " .

---

[1] التحرير والتنوير : ٧٠/٢٩ .

والذى أفهم التمنى الودادة فى قوله تعالى : "يود" : قال الإمام البقاعى : "يود : أى يتمنى ويشتهى المجرم" : أى هذا النوع سواء كان كافرا أو مسلما عاصيا علم أنه يعذب بعصيانه : وقيد به لأن المسلم الطائع يشفع فيمن أذن له فيه ، ولا يهمه شئ من ذلك [1] .

"ولو" مصدرية ، وما بعدها فى حكم المفعول ليود ، أى يود الافتداء من العذاب ببنيه إلى آخره ..... والافتداء : إعطاء الفداء ، وهو ما يعطى عوضا لإنقاذ من تبعة .. والمعنى لو يفتدى نفسه ، والباء بعد مادة الفداء تدخل على العوض المبذول ، فمعنى الباء التعويض [2] .

(ولما كان السياق للافتداء بدأ بأعزهم فى ذلك ، بخلاف ما يأتى فى عبس [3] فقال : ببنيه لشدة ما يرى ، ولما ذكر ألصق الناس بالفؤاد وأعز ما يلزمه والذب عنه ، أتبعه ما يليه فى الرتبة والمودة وما الافتداء به - لا سيما عند العرب - من أقبح العار فقال : وصاحبته : أى زوجته التى يلزمه الذب عنها والكون دائما معها لكونها عديلة روحه فى الدنيا .

ولما ذكر الصاحبة لما لها من تمام الوصلة ، أتبعها الشقيق الذى لا يلزم من الذب عنه ما يلزم من الذب عن الحريم وربما كان مباينا فقال : وأخيه " .

ولما كان ما بقى من الأقارب بعد ذلك متقاربين فى الرتبة ذكر أقربهم فقال : "وفصيلته" أى عشيرته الذين هم أقرب من فصل عنه . "التى تؤديه" أى تضمه إليها عند الشدائد وتحميه لأنه أقرب الناس إليها وأعزهم عليها ، فهم أعظم الناس حقا عليه وأعزهم لديه .

---

(1) نظم الدرر : ٣٩٧/٢٠ .

(2) التحرير والتنوير : ١٦٧/٢٩ .

(3) يقصد قوله تعالى : " يوم يفر المرء من أخيه .. الآيات . سورة عبس : ٣٤ .

ولما كانت هذه الآية فى الفدية ، قدم الأبعد عن ذلك فالأبعد من جهة النفع والمعرة ، ولما كانت آية عبس فى الفرار والنفرة قدم الألصق ، والأعلق فى الأنس فالأعلق .

ولما خص هنا "عم" فقال : "ومن فى الأرض" أى من الثقلين وغيرهم سواء كان فيهم صديق لا صبر عنه ، ولابد فى كل حال منه أولا . ولما كان ربما خص ذلك بغيره قال محققا لإرادة الحقيقة فى معنى من : جميعا [1] .

(وثم فى قوله "ثم ينجيه" للتراخى الرتبى ، أى يود ذلك وأن ينجيه الفداء من العذاب ، فالإنجاء من العذاب هو الأهم عند المجرم فى ودادته . والضمير البارز فى قوله "ينجيه" عائد إلى الافتداء المفهوم من "يفتدى" والمعطوف بـ (ثم) هو المسبب عن الودادة ، فلذلك كان الظاهر أن يعطف بالفاء ، وهو الأكثر فى مثله ، كقوله تعالى : ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء "- النساء : ٨٩ - وقوله : "ودوا لو تدهن فيدهنون" - القلم : ٩ - فعدل عن عطفه بالفاء هنا إلى عطفه بثم للدلالة على شدة اهتمام المجرم بالنجاة بأية وسيلة ومتعلق "ينجيه" محذوف يدل عليه قوله : من عذاب يومئذ" .

وكلا حرف ردع وإبطال لكلام سابق ، ولا يخلو من أن يذكر بعده كلام ، وهو هنا لإبطال ما يخامر نفوس المجرمين من الودادة ، نزل منزلة الكلام لأن الله مطلع عليه ، أو لإبطال ما يتفوه به من تمنى ذلك .. فالتقدير : يقال له كلا ، أى لا افتداء ولا إنجاء [2] .

وهكذا يردع المجرم - وقد طبع على قلبه فاستغوته الأطماع حتى تعلق بتحقيق المحال - ويبطل ما تمناه من الافتداء بأعز من كان عليه فى الدنيا والإنجاء من عذاب جهنم ، وينبه على أن شيئا من ذلك لن يتحقق .

---

(1) يقصد قوله تعالى : "يوم يفر المرء من أخيه .. الآيات . سورة عبس : ٣٤ .

(2) التحرير والتنوير : ١٦٢/٢٩ .

(التمنـــى بلعـــل)

(٣٣) (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لى صَرْحاً لَعَلَى أَبْلُـــغُ الأَسْـــبَابَ . أَسْبَابَ السمَاوَاتِ فَاطَّلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وإِنَّى لأَظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذِلِكَ زُينَ لِفِرْعوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَبِيلِ ومَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِى تَبَابٍ) (غافر : ٣٦ ، ٣٧)

لما كان منطق مؤمن آل فرعون حكيما ، وحجته بالغة ، وكانت مـــن شدة الوقع على فرعون وملئه ، بحيث لم يستطع أحد منـــهم تجاهلـــها - اتخـــذ فرعون لنفسه مهربا جديدا فقال : " يا هامان ابن لى صرحا .. " الآية .

وقول فرعون لوزيره هامان : يا هامان ابن لى صرحا" وما سبقه مـــن قوله : ذرونى أقتل موسى وليدع ربه - غافر : ٢٦ وقوله : "ما أريكم إلا مـــا أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد" - غافر ٢٩ - ((حيدة عن محاجة موســـى ورجوع إلى أشياء لا تصح ، وذلك كله لما خامره من الجزع والخوف وعـــدم المقاومة ، والتعرف أن هلاكه وهلاك قومه على يد موسى ، وأن قدرته عجـزت عن التأثير فى موسى هذا على كثرة سفكه الدماء [١] .

والمتمنى فى هذا القول الكريم بلوغ فرعون مسالك السماوات حـــتى يرى إله موسى - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - ويلحظ أن الأداة المستعملة فى التمنى "لعل" ، والأصل فيها الرجاء .

قال صاحب الإيضاح : ((وقد يتمنى بلعل فتعطى حكم [٢] ليت ، نحو : لعلى أحج فأزورك - بالنصب - لبعد المرجو عن الحصول . وعليه قراءة عـاصم فى رواية حفص : "لعلى أبلغ الأسباب أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى " - بالنصب [٣])) أى نصب أطلع فى جواب التمنى .

---

(١) البحر المحيط : ٤٦٥/٧ .

(٢) أى نصب المضارع بالفاء بعدها .

(٣) بغية الإيضاح : ٣٤/٢ .

ولم يرتض صاحب البغية ما ذكره صاحب الإيضاح فى بيان نكتة استعمال لعل فى التمنى فقال : لا يخفى أن "لعل" لا تدل على بعد المرجو حتى يشار بها إلى ذلك . فالأحسن أن تجعل نكتته إظهار المتمنى فى صورة الممكن المتوقع الحصول لشدة الرغبة فيه [1] .

وفى مزية استعمال لعل فى التمنى يقول أستاذنا الدكتور محمد أبو موسى : (قرأ عاصم فى رواية حفص بالنصب فى "فأطلع" وهذا لا يكون إلا إذا كانت لعل بمعنى ليت ، فهذه القراءة تجعل الرجاء تمنيا ، وحينئذ تفيد أن إحساس فرعون باطلاعه على إله موسى أمر مستبعد وهكذا يعتقد لأنه لا يؤمن بأن لموسى إلها ، ولأنه قال : وإنى لأظنه كاذبا "وجاء التمنى فى عبارة الرجاء التى تكون للأمر المتوقع لأن فى ذلك إيهاماً ما بأنه جاد فى التعرف على حقيقة ما يدعو إليه موسى فها هو يبلغ أسباب السماوات ، ويجد فى أن يطلع على حقيقة الأمر ، وكأن وراء ذلك إدلالاً بقوة موقفه ، وأنه يفعل ذلك ليبطل ما قد يطوف فى الأوهام أن فى الكون إلها غيره [2] .

ويلحظ فيما تمناه فرعون تكرير الأسباب ، وفى مزية هذا التكرير يقول صاحب الكشاف : (إذا أبهم الشئ ثم أوضح كان تفخيما لشأنه ، فلما أراد تفخيم ما أمل بلوغه من أسباب السماوات أبهمها ثم أوضحها ، ولأنه لما كان بلوغها أمرا عجيباً أراد أن يورده على نفس متشوقة إليه ليعطيه السامع حقه من التعجيب ، فأبهمه ليشوف إليه نفس هامان ثم أوضحه [3] .

---

(1) بغية الإيضاح : ٣٤/٢ .

(2) دلالات التراكيب : ٢٠٢ .

(3) الكشاف : ٣٧١/٣ .

وهكذا حقق استعمال فرعون "لعل" ـ التى للرجاء ـ فيما هو مستحيل الوقوع أكثر من غرض : – إظهار ما تمناه من بلوغ الأسباب حتى يطلع إلى إلـه موسى وهو مستحيل ـ فى صورة الممكن المتوقع الحصول .

((وتلك فورة من فورات النفس الطاغية المتكبرة فى لحظة انفعال متجبر يخيل له الوهم أن المستحيل فى متناول يده .. "ولعل" أقرب إلى الإمكان النفسى من هل . ويؤيده قراءة فأطلع بالرفع على أن لعل على بابها من الرجاء)) [1] .

– التظاهر أمام قومه بالإنصاف والتثبت وإيهامهم أنه جاد فى اطلاعـــه على حقيقة ما يدعو إليه موسى عليه السلام .

– الإدلال بثقته بنفسه بما أراد من صنيعه هذا ليقر فى الأذهان أن ليـس فى الكون إله غيره .

ولاشك أن هذا إصرار من فرعون على الباطل ومجادلة فى الحق بعد مـا تبين ، وصد عن سبيل الله ، وكله مفض بصاحبه إلى الخيبة والدمار .

---

(1) الأساليب الإنشائية وأسرارها فى القرآن الكريم : ٢٨٣ .

(الخـــاتمـــة)

وبعد ، فإن هذه الدراسة التى شرفت بالقرب من الرحاب القـــرآنى ، يمكنها أن تقدم ـ فى تواضع ـ هذه النقاط التالية :

وقع التمنى القرآنى فى اثنين وثلاثين موضعا ، أغلبيته المطلقة فى إطار مـا لا يرجى حصوله لاستحالته ، وندر ما كان منه بعيد المنـــال ؛ إذ إن تطلعـــات القلوب وأشواق الأرواح لا تخضع لمقاييس الواقع ، ولا تتقيد بحدود الإمكـان ، والسبيل الوحيد للتنفيس عن رغائب النفوس الحبيسة هو التمنى .

كاد الترويح عن النفس أن يكون الغاية المنشودة من التعلق بهذا الأمـــر المحبوب الذى لا يرجى حصوله باستثناء ما كان منه للاستعطاف والاعتـــذار ، ولاشك أن الترجمة عن الخواطر الحبيسة والغناء بالأحلام البعيدة مما يروح عـــن النفس ويطرح عنها أثقالاً وأوزاراً .

فاقت صور التمنى الأخروى ما ورد منه دنيويا حيث ولى زمن التكليف وقام الناس لرب العالمين : ينظر كل واحد منهم ما قدمت يداه ، ولم يعد أمـــام كل ذى نفس مقصرة سوى إطلاق صيحة التمنى متحسرا على مـــا فـــرط فى جنب الله سبحانه ـ وما ضيع من فرص كانت كفيلة بتغيير ما ينتظره من مصـير مشئوم .

العاطفة المسيطرة على نفس كل متمن بائسة حزينة باســـتثناء حـــال واحدة تختص بمؤمن آل فرعون ، لما قيل له "ادخل الجنة" تمنى ـ وهو مغتبـــط مسرور ـ علم قومه بما غفر له ربه وجعله من المكرمين . .

اللفظ الموضوع للتمنى "ليت" وهى عريقة فى هذا البـــاب ، ولـــذا لم تتخلص من الدلالة عليه ، ولم تجر فى غير هذا المعنى القلبى الحميم لغيرها مـــن الأدوات التى قد تخرج عن معانيها الأصلية لأغراض بلاغية يقتضيها المقام .

وشواهد التمنى بليت اثنا عشر شاهدا وكلها مسبوقة بيا ، وهى بإيقاعها الممدود عون للمتمنين على المد فى أصواتهم المتحسرة ونبراتهم الأسيفة ، والإيقاع الممدود يزيد الموقف طولا ، ويزيد أثره عمقا . وليت - مع كونها لطلب ما لا يرجى حصوله لاستحالته أو بعد منالة - فإن المتمنين بها لهم أمل فى تحقق ما تتعلق به نفوسهم .

"هل" من الأدوات التى تفيد التمنى مجازا . وشواهدها خمسة وسر العدول بها عن "ليت" إبراز المتمنى فى صورة المستفهم عنه الذى لا جزم بانتفائه لإظهار كمال العناية به وهى تصور المحال فى صورة الممكن تنفيساً عن رغبة نفسية حبيسة ، إذ إن المتمنى لفرط تمنيه فى تحقيق ما يتمناه يؤثرها فى تعبيره ، ويراها أداة طيعة تتواءم وتطلعات نفسه خلافا لليت التى توصد الباب أمامه أو تكاد .

"لو" من الأدوات المستعملة فى التمنى مجازا ، وعلامتها صحة وضع ليت موضعها ، ومزية التمنى بها الإشعار بعزة المتمنى ، حيث أبرز فى صورة ما لم يوجد لأن لو بحسب أصلها حرف امتناع لامتناع . وشواهدها ثلاثة ، وهى لتمنى المحال الذى لا أمل فيه خلافا لليت التى وإن كانت لتمنى المحال أو المستبعد فإن المتمنى بها ذو أمل ما فى تحقيق ما يتمناه .

"لو" المصدرية تفيد التمنى أيضا على سبيل المجاز ، وعلامتها صحة وضع أن موضعها ، وشرطها الوقوع بعد مفهم تمنٍ وهو الودادة ولها اثنا عشر شاهدا .

في موازنة بين "لو" التي بمعنى ليت ، و"لو" المصدرية يمكن أن يقال :

في الأولى : يرد التمنى على لسان المتمنين أنفسهم . وفي الثانية : يخبر الله - عز وجل - به عما يخامر نفوسهم من الودادة وكأن ألسنتهم قد انعقدت حتى عن مجرد التلفظ بعبارة التمنى التي لا تعد وكونها سرابا لا يروى ظمأ ولا يذهب حزنا لبلوغ اليأس مبلغا شديداً .

في الأولى تقل شواهد التمنى ومرجع ذلك إلى انقطاع الأمل في نفوس المتمنين ولذا كان التمنى بلو التي هي في أصلها حرف امتناع .

وفي الثانية تكثر شواهد التمنى ، والكثرة هنا ليست مؤشرا على تحرك الأمل في نفوسهم في تحقق ما يتمنون ، وإنما مجرد اطلاع من الله - عز وجل - على ما في نفوس المتمنين من الودادة نزل منزلة الكلام .

في الأولى تبرز العبارة القرآنية التمنى على لسان صاحبه ميئوسا منه ، مقطوع الأمل في تحققه في موقف معين دون أن يعطى ميزة على غيره من صور التمنى التي تتكرر وتتعدد لدى النفس البشرية . وفي الثانية تبرز الودادة التي سبقت بها لو هذا التمنى ميئوسا منه كذلك ، وتزيد عليه تصويره في صورة التمنى الأعظم الذي غلب على مشاعر المتمنين فضؤل بجانبه كل تمن آخر حتى كاد أن يكون التمنى الأعظم في حياتهم .

"لعل يتمنى بها على سبيل المجاز ، ومزية استعمالها في التمنى إظهار المتمنى في صورة الممكن المتوقع الحصول لشدة الرغبة فيه ، ولها شاهد واحد جرى على لسان فرعون حين تمنى بلوغ الأسباب حتى يطلع إلى إله موسى في فورة من فورات نفسه الطاغية في لحظة انفعال متجبر حيث خيل له وهمه أن المستحيل في متناول يده . وهي أقرب إلى الإمكان النفس من هل .

هذا وتبقى العبارة القرآنية ثرية فياضة ، تمنح من أسرارها كل من أقبل على كتاب الله ـ عز وجل ـ بقدر تجرده لمولاه ، وقوه صلته بما أنزله على حبيبه ومصطفاه .

"ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب " [1] .

(وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين)

(1) آل عمران : ٨ .

(المصادر والمراجع)

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : أبو السعود محمد بن العمادى دار إحياء التراث العربى - بيروت - لبنان - الطبعة الثانية - ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م .

(٢) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية فى القرآن الكريم : أ.د صباح دراز مطبعة الأمانة - جزيرة بدران - شبرا مصر - الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

(٣) البحر المحيط : أبو حيان الأندلسى دار إحياء التراث العربى - بيروت - لبنان - الطبعة الثانية - ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م .

(٤) البرهان فى علوم القرآن : الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعرفة - بيروت - لبنان .

(٥) بغية الإيضاح : الشيخ عبد المتعال الصعيدى مكتبة الآداب - الأوبرا - القاهرة .

(٦) تفسير التحرير والتنوير : محمد الطاهر بن عاشور الدار التونسية للنشر . تونس .

(٧) تفسير القرآن العظيم : الإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى دار المعرفة - بيروت - لبنان ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م .

(٨) الجنى الدانى فى حروف المعانى : الحسن بن قاسم المرادى . تحقيق فخر الدين قبادة . محمد نديم فاضل - الآفاق الجديدة - بيروت - لبنان .

(٩) حاشية الدسوقى على شرح السعد ضمن شروح التلخيص مطبعة السعادة - مصر - الطبعة الثانية ١٣٤٢ هـ .

(١٠) حاشية الشهاب على البيضاوى المسماة عناية القاضى و كفاية الراضى على تفسير البيضاوى المكتبة الإسلامية ـ محمد أزدمير ـ ديار بكر ـ تركيا .

(١١) حاشية العلامة الصاوى على تفسير الجلالين : احمد الصاوى المالكى . دار إحياء التراث العربى ـ بيروت ـ لبنان .

(١٢) دلالات التراكيب : أ.د محمد أبو موسى . مكتبة وهبة ـ عابدين ـ الطبعة الثانية ـ ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م .

(١٣) روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى : أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسى البغدادى دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ ط. أولى ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م .

(١٤) غرائب القرآن ورغائب الفرقان على هامش جامع البيان .

(١٥) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية : سليمان بن عمر العجيلى الشافعى الشهير بالجمل دار الفكر للطباعة والنشر .

(١٦) فى ظلال القرآن : سيد قطب دار الشروق ـ القاهرة ـ الطبعة السابعة عشرة ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .

(١٧) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل : أبو القاسم جار الله محمود ابن عمر الزمخشرى . دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان .

(١٨) لطائف الإشارات : الإمام القشيرى . تحقيق د / إبراهيم بسيونى الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠ م .

(١٩) مختصر السعد / ضمن شروح التلخيص : سعد الديـــنى التفتـــازانى مطبعة السعادة ـ مصر ـ الطبعة الثانية ١٣٤٢ هـ .

(٢٠) المطول على التلخيص : سعد الدين التفتازانى المكتبة الأزهرية للتراث ـ درب الأتراك بالقاهرة .

(٢١) مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب : ابن هشام الأنصارى تحقيق محمـــد محى الدين عبد الحميد .

(٢٢) مفاتيح الغيب : فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسين علـــى التميمى البكرى الرازى دار الغد العربى ـ العباسية ـ القاهرة ـ الطبعـــة الأولى ـ ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م .

(٢٣) المفردات فى غريب القرآن : الحسين بن محمد المعـــروف بـــالراغب الأصفهانى مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة .

(٢٤) من غرائب التنزيل : زين الدين محمد بن ابى بكر بن عبد القادر بـــن عبد المحسن الرازى تحقيق الشيخ إبراهيم عطوه ونخبة من علماء الأزهر ـ ملحق على مجلة الأزهر .

(٢٥) مواهب الفتاح / ضمن شروح التلخيص : ابن يعقوب المغربى . مطبعة السعادة ـ مصر ـ الطبعة الثانية ١٣٤٢ هـ .

(٢٦) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور : برهان الديـــن أبـــو الحســـن إبراهيم بن عمر البقاعى دار الكتاب الإسلامى ـ القـــاهرة ـ الطبعـــة الثانية ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م .

فهرس الآيات القرآنية

الآيـــــــــة	رقمها	السورة	الصفحة
التمنى بليت			
"...... يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما"	٧٣	النساء	١٦٩
" ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ... "	٢٧	الأنعام	١٧٢
" ...... ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا "	٤٢	الكهف	١٧٣
" ...... قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا "	٢٣	مريم	١٧٥
"ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا "	٢٧	الفرقان	١٧٨
" يا ويلتى ليتني لم اتخذ فلانا خليلا "	٢٨	الفرقان	١٧٨
" ..... قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون "	٧٩	القصص	١٨١
" ...... يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا "	٦٦	الأحزاب	١٨٢
" قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون "	٢٦	يس	١٨٤
" حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين "	٣٨	الزخرف	١٨٦
" وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه "	٢٥	الحاقة	١٨٨
" يا ليتها كانت القاضية "	٢٧	الحاقة	١٨٨
" ...... يا ليتني كنت ترابا "	٤٠	النبأ	١٩٠
" يقول يا ليتني قدمت لحياتي "	٢٤	الفجر	١٩١
التمنى بهل			
" ...... فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ...... "	٥٣	الأعراف	١٩٨
" فيقولوا هل نحن منظرون "	٢٣	الشعراء	٢٠٢
" ...... فهل إلى خروج من سبيل "	١١	غافر	٢٠٤
"وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون إلى مرد من سبيل"	٣٢	الشورى	٢٠٦

" ... هل من محيص "	٣٦	ق	٢٠٨
التمنى بـ لو (التى بمعنى ليت)			٢١١
"وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا .. "	١٦٧	البقرة	٢١٤
" فلو أن لنا كرة من المؤمنين "	١٠٢	الشعراء	٢١٦
" أو تقول حين ترى العذاب أن لى كرة فأكون من المحسنين	٥٨	الزمر	٢١٨
التمنى بـ لو (مسبوقة بالودادة)			
" ..... يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ..... "	٩٦	البقرة	٢٢١
" ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا "	١٠٩	البقرة	٢٢٣
"وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ... "	٣٠	آل عمران	٢٢٥
" ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ..... "	٦٩	آل عمران	٢٢٧
" يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض .. "	٤٢	النساء	٢٢٨
" ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ..... "	٨٩	النساء	٢٣٠
" ..... ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم "	١٠٢	النساء	٢٣٢
"ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين "	٢	الحجر	٢٣٥
" ... وأن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب .. "	٢٠	الأحزاب	٢٣٧
" ..... وودوا لو تكفرون "	٢	الممتحنة	٢٣٩
" ..... ودوا لو تدهن فيدهنون "	٥	القلم	٢٤٠
" ... يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببينه "	١١	المعارج	٢٤٢
التمنى بـ لعل			٢٤٥
"وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب"	٣٦	غافر	٢٤٧

دليـــل البحـــث

الموضـــــــــــوع	الصفحة
◆ المقدمة	١٦١
◆ التمنى بـــ ليت	١٦٧
◆ التمنى بـــ هل	١٩٥
◆ التمنى بـــ لو	٢١١
◆ أولاً : لو التى بمعنى ليت	
◆ ثانيا : لو المسبوقة بالودادة	
◆ التمنى بـــ لعل	٢٤٥
◆ الخاتـــمة	٢٥١
◆ المصادر والمراجع	٢٥٦
◆ فهرس الآيات القرآنية	٢٦٠
◆ دليل البحث	٢٦٢